الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالقضاء والقدر

إنه ما تزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها فى العالم ذلك الانقلاب العظيم، وهزتها العنيفة لأركانه المتداعية، وخلخلتها للكيان البشرى المهزوز، منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذى أطاح بصروح الباطل ودك عروش الشر والكفر والفساد، ما تزال العقيدة الإسلامية، تُستَهدف للطعن الشديد، وتتعرض للنقد القاسى المرير من خصومها الألداء، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى، ومجوس وملحدين على حد سواء، علماً منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذى وقع فى الكون على أيدى أصحاب رسول اللّه ﷺ، وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان فى العقيدة الإسلامية، فلهذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها، ويطعنون حتى زلزلوها فى نفوس أكثر المسلمين، ويومها فقط تسنى لهم[1] أن يوقفوا تيارها، ويقطعوا أسلاك أنوارها ؛ فتعود الظلمة إلى العالم الإنسانى، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوى الرَّدى، وأسقطتها فى جحيم لا يطاق.

ولنذكر فى هذا وعلى سبيل المثال فقط أن عقيدة القضاء والقدر وهى أحد أجزاء العقيدة الإسلامية، وليست كلها أبداً قد تعرضت لطعن عنيف، وتشكيك سخيف، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب، إنه لم تكد تذهب آثار شمس النور المحمدى المتخلف مع البقية الباقية من أصحاب رسول اللّه ﷺ حتى ظهر فى المسلمين مبدأ نفى القدر، والقول بالجبر، ومذهب الاعتزال، والتشيع، ونَجَم[2] الشر واستطار، وطرق كل الأقطار، وتعرضت أمة الإسلام بعقائدها، وبلادها، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التى زلزلت كيانها، تتهاوى تحت ضربات الحانقين، وطعنات الناقمين.

ولما هوى ذلك النجم الذى أضاء المعمورة، وغمر الحياة بالهدى والخير قال الذين كفروا -تشفياً من الإسلام، وإمعاناً فى الإجرام-: إن ما أصاب المسلمين من الانهيار والسقوط، بعد التفكك والضعف الكبير، كان نتيجة بعض العقائد عندهم، وخصوا بالذكر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وكان ذلك منهم إفكاً[3] مفترى، وكذباً مقلوباً، مشوهاً للحقيقة ؛ إذ الواقع هو

---

(1) تسنى: تهيأ وتيسر.
(2) نجم: ظهر.
(3) الإفك: الكذب المقلوب وهو أسوأ الكذب.

أن الذى أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهوان ودون لم يكن نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب، وإنما كان نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على وجه غير صحيح ولا مطلوب، وذلك بما دس فيها الأعداء، وما شوهوها به من تأويل باطل، وتحريف سخيف قضى عليها، وأماتها فى نفوسهم أو كاد.

وهذا من أشد ما يملأ النفس أسى وحزناً، إن أعداء المسلمين ما زالوا يفسدون عليهم عقائدهم، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها، فضعفوا لذلك، وهانوا، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون: إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التى يعيشون عليها معتقدينها، منفعلين بها، مستجيبين لها، ومن المؤسف حقاً أن أكثر المسلمين ما زالوا إلى اليوم لم يصرفوا داءهم، ولا ما كادهم به أعداؤهم ؛ إذ إننا نرى كثيراً منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر، ويحتج بها مرة على فسقه وتهربه من مسئولياته، ومرة يتجنى بها على اللّه تعالى ربه وخالقه ومدبر أمره، وميسره إلى ما خلقه له. فينسب إليه تعالى الظلم، ويعترض عليه فى قضائه، ومجارى أقداره، وعادل أحكامه.

ومن هنا رأيت العناية ببحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن واجبة، لما عسى أن ينفع اللّه به من يقرؤه أو يسمعه ممن هم فى بلبلة فكر، واضطراب نفسى من عقيدة القضاء والقدر، فينقطع بلبال أفكارهم، ويزول اضطراب نفوسهم، فيؤمنون ويرضون، ويعملون بطاعة اللّه ورسوله فينجون ويسعدون.

وبين يدى بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن وهو القضاء والقدر أقدم ثلاث كلمات تمهيدية قد تساعد على فهم هذا المعتقد، وتسهل الوصول إلى إدراك حقيقته.

* * *

الكون ومظاهر التنظيم فيه

إن كلمة الكون تعنى هذا الوجود من العوالم العلوية والسفلية كالأرض والسماء وما فيهما وما بينهما، وهو كون هائل عظيم يحوى عوالم كثيرة لا تحصى عداً ولا يحاط بها حداً، كل عالم منها يقف العقل البشرى أمامه حائراً مشدوهاً، ففى سمائنا الدنيا هذه وحدها بلايين الكواكب والنجوم، تختلف فى أحجامها وأبعادها وقوانين سيرها، كما تختلف فى أجرامها، ومحتوياتها، وخصائصها.

وفى أرضنا هذه التى نعمرها، ونعيش عليها عوالم لا تقل عظمة وروعة عن العوالم العلوية. ففى عالم الإنسان، كعالم الحيوان، كعالم النبات عجائب كثيرة فى الخلق، وعجائب فى العدد والكثرة، وعجائب فى الخصائص والطباع.

وكل هذا الكون الضخم العجيب قد ربطت بين أجزائه كلها العلوية والسفلية أنظمة من السنن الإلهية الدقيقة المدهشة، فسار الكون كله متحداً متناسقاً إلى غاية لم ينته إليها بعد، إذا ما وصلها يكون قد استنفد طاقته وانتهى. قال اللّه تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ** ﴾ (الأنعام: 2).

هذا الكون المدهش المحير تجرى فيه حوادث هائلة عظيمة، كل حادثة منها لها عواملها، وأسبابها، ومقتضياتها الخاصة بها، فدورة الأفلاك، وسير الكواكب، وهبوب الرياح، واختلافها، وتراكم السحب، وسقوط الأمطار، ونبات الزروع، وتوالد الإنسان والحيوان، وما يتجدد من موت وحياة ـ كل هذا خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية، وأغراض صالحة سامية، فليس بين هذه الأحداث والحوادث الجارية فى الكون ما هو عار عن حكمة متوخاة ولا ما هو جار على غير قانون ثابت يربطه بكل أجزاء الحياة.

ومن أجل هذا التنظيم السارى فى كل أجزاء هذا الكون ما شك الذين أوتوا العلم فى أن رب هذا الكون جل جلاله وعظم سلطانه قيد علمه قبل خلقه كلاً وتفصيلاً، ووضع هذا النظام الذى يحكمه قبل وجوده، ثم ربطه به بعد أن أوجده فهو يسير فيه، لا يتخلف عنه ولا يخرج، وهذا النظام هو سر اطراد الحياة الدنيا، وبقائها إلى أجلها الذى تنتهى إليه ـ وهو بالتالى نظام القضاء والقدر الذى دعت رسل اللّه جميعاً إلى الإيمان به والرضى بكل مجاريه خيره وشره على حد سواء.

الثانية: كيف كان الكون موجوداً ؟

الوجود قائم لا معنى لإنكاره، ولا حاجة إلى إقامة الدليل على وجوده، وإنما المسألة التى شغلت أذهان الباحثين فيه قديماً وحديثاً هى مسألة قدم العالم وحدوثه، أى هل الوجود قديم أزلى أو حادث سبقه عدم، وطرأ عليه وجود ؟

إن أكثر علماء البشر قد أطبقوا على حدوث العالم ؛ وذلك لعلة التغير، والكون أو الوجود متغير فهو إذاً حادث غير أزلى قطعاً، هكذا كان استدلال العلماء على حدوث العالم، واستمر كما هو إلى القرن التاسع عشر الميلادى، وحتى اكتشف قانون الطاقة المتاحة والذى أثبت بما لا مجال للشك فيه ـ كما يقول علماء الكون اليوم ـ أن العالم لم يكن أزلياً أبداً وإنما هو حادث مخلوق كما لم يكن أبدياً بل لابد له من نهاية حتماً، وسر ذلك أن الطاقة الحرارية المتاحة تنتقل دائماً من جسم حرارى إلى آخر على خلافه، ولا يمكن أن يكون العكس، فهذه الطاقة المتاحة لابد وأن يكون هناك من أتاحها أولاً ؛ إذ العدم السابق لا ينتج شيئاً فتعين أن يكون خالقه أزلياً، وبهذا يبطل أن يكون الوجود أزلياً كما ادعى بعض الفلاسفة الملحدين ولزم أن يكون حادثاً له بداية، ولما كان له بداية كان له نهاية حتماً.

وعند تقرير هذه الحقيقة العلمية يقول أحد علماء الغرب: وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله ؛ لأن كل شيء ذى بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولابد أن يحتاج إلى المبدئ الأول وهو الإله الخالق سبحانه وتعالى، وفى القرآن الكريم مصداق هذا حيث جاء فيه قول الله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ (فصلت: 53).

بحكم هذا القانون السابق الذكر وهو انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى غيرها، وهى عملية مستمرة فإن هذه الطاقة ستنفد فى يوم من الأيام وعندها تنتهى هذه الحياة، هكذا يقول علماء الكون، وهى نظرية سليمة، غير أن نهاية الحياة أخبر عنها خالقها بأنها تكون عند نهاية الأجل المسمى لها، ولا تكون بفقد الطاقة الحرارية، ولكن باختلال الأفلاك، كما قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا** ﴾ (الواقعة: 1 ـ 6). و ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ** ﴾ (التكوير: 1 ـ 3). و ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ** ﴾ (الانفطار: 1، 2). بيد أن أولئك العلماء حسبهم أنهم قد أثبتوا بطريقتهم

العلمية الخاصة حدوث العالم، وعدم أبديته، وأنه لابد من فنائه، ونهاية هذه الحياة الدنيا.

وبعد هذا فإن السؤال الملحّ هو كيف كان بدء الوجود ؟ أو كيف كان هذا الكون ؟ وعند الجواب عن هذا السؤال انقطعت ألسنة الماديين من كونيين ومن غيرهم، فلم يحاروا جواباً، وأنَّى لهم أن يجيبوا بشيء سوى الهوس، والتخمين، والحدس، أو الظن، والكذب، والخرص، ومن تلك الظنون والتخرصات قول بعضهم: إن الأرض قد انفصلت عن الشمس شرارة ملتهبة، ثم بردت بعد ملايين السنين، وتحجرت، وأصبحت ذات قشرة ترابية، فتهيأت بذلك للخلق، والحياة عليها.

وأما الحياة فإنهم يقولون: إنها بدأت خلية بسيطة، ثم أخذت تتطور وتتكاثر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، ثم لو سئلوا وقيل لهم: إذا كانت الأرض قد انفصلت عن الشمس، والشمس وسائر الكواكب والنجوم ـ وهي ملايين بتقديراتكم أنفسكم ـ عمَّ كان انفصالها ؟

وخلية الحياة، وهم يقولون: إنه لا يبعد أن تكون قد جاءت في شكل جرثومة من بعض الكواكب الأخرى، لم لا تكون خلية أخرى إذاً قد وقعت على كوكب آخر كالقمر مثلاً، ونمت فيه كما نمت على الأرض، وأصبح في ذلك الكوكب عالم من الأحياء كعالمنا هذا ؟ مع أنهم يقولون: إن القمر خال من الحياة تماماً بناء على ما ادعوه من مشاهدة سطح القمر عند نزولهم على سطحه كما يزعمون !! والحمد لله القائل: ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ (الكهف: 51).

فقد أغنى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن هذه الهواجس، والوساوس، والظنون، والتخرصات حيث أخبر تعالى وهو الخالق عن كيفية خلق الكون، وكفى بمن خلق مخبراً وكيف لا يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير ؟ إذ يقول تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (الأنبياء: 30 ـ 33).

وقال: ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ** ﴾

سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: 9 ـ 12).

هذا خبره تعالى عن خلق الكون، وأما عن خلق الإنسان، والجان، والحيوان، والنبات فيقول تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن: 14، 15). ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: 26، 27). ويقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: 45). ويقول: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: 24 ـ 32).

أين هذا الإيمان الواقى، والقول الشافى، والنبأ اليقين فى خلق الإنسان والكون، من ذلك الهراء الخواء، والخرص والتخمين، بل الكذب والإفك المبين ؟؟ إن ما بينهما كما بين الوجود والعدم، والسمع والصمم !!

وأين هؤلاء من أولئك ؟ !!

هؤلاء هُدوا بإيمانهم لمعرفة الحق فعرفوه، وقبلوه، وسكنت له نفوسهم، وآثروه، وأولئك ضلوا بكفرهم، فآثروا العمى على الهدى، فعارضوا العلم الحق بالشبهات، وردوا اليقين بالشك والمين(1).

المؤمنون أضاء لهم نور الوحى المبين، فرأوا فى نوره أهل الظلمات فى آرائهم يعمهون، وفى ضلالاتهم يتهوكون(2)، وفى ريبهم يترددون. والكافرون لاح لهم فى بيداء الهوى سراب، فجروا وراءه ظانين أنه الحكمة وفصل الخطاب، ولما انتهوا إليه بعد كلال، وجدوه خيبة آمال وسوء مآل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: 39، 40).

---

(1) المين بفتح الميم، وسكون الياء: الكذب، ومنه قولهم: أكثر الظنون ميون.

(2) العمه والتهوك: كلاهما بمعنى التحير والتردد.

الثالثة:

لقد أصبح معلوماً بالضرورة لدى العالمين بأحوال الكون أن الكون كله علويه وسفليه مربوط بنظام دقيق هو غاية فى الدقة، فمن أكبر حجم فيه -كوكب الشمس مثلاً- إلى أصغر شىء -كنواة الذرة- الكل مشدود بقوانين عجيبة، ومحكوم بسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما صرح بذلك القرآن الكريم فى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: 43).

ولو فرض أن سنة من تلك السنن التى تربط الكون قد اختلت لخرب العالم أجمع.

ففى العالم العلوى مثلاً لو أن خللاً طرأ على النظام الشمسى بخروج بعض الكواكب عن مسارها، واصطدامها ببعض الكواكب الأخرى لكانت نهاية العالم حتماً، ولو أن حرارة الشمس زادت نسبتها على ما هى عليه الآن بعض الزيادة، أو نقصت على ما هى عليه بعض النقصان لما أمكن الحياة على الأرض للاحتراق الذى يصيبها فى الحالة الأولى، أو التجمد الذى يصيبها فى الحالة الثانية.

هذا فى العالم العلوى، وفى العالم السفلى لو أن نسبة الأكسجين وهى واحد وعشرون فى المائة (21%) زادت على نسبة الهواء فكانت خمسين مثلاً لاحترق كل شىء قابل للاحتراق.

كما أنها لو نقصت عن هذه النسبة المحددة لاختنق البشر، وهلك الناس، هذا مجرد مثال سقناه للأنظمة العامة التى أوجدها اللّه سبحانه وتعالى فى هذا الكون وربط بها الحياة، وجعلها متوقفة عليها. وأما النظام الخاص والموضوع لكل كائن فى الحياة فهو نظام مدهش جداً، إنه يوجد لكل كائن سنن خاصة به فى وجوده ونشأته، وتطور حياته، وفى طرق معاشه، واكتساب رزقه، وسنن تناسله، وحفظ نوعه، وكيفية موته وفنائه، وأكثر هذه السنن الخاصة بالأحياء معلومة لمن تأملها، وفكر فيها. ومن هذه السنن أذكر على سبيل المثال ثلاث سنن من سنن اللقاح فى الإنسان والحيوان، والنبات، فأقول:

إن الميل الفطرى الذى يجده الرجل إلى امرأته، والمرأة إلى زوجها، وذلك الغشيان الخاص للنسل، وحفظ النوع عمل يتم وفق سنة موضوعة للإنسان لحفظ نوعه.

ومن أجل تحقيق تعاون بين الزوجين ينتج عنه حفظ الأولاد، وتربيتهم توجد الظاهرة التالية، وهى أن الرجل يبقى فى حاجة إلى غشيان المرأة حتى فى حال حبلها، بخلاف الحيوان ؛ فإنه إذا حبلت أنثاه عافها وتركها مما يدل على أنه مفطور على إتيانها لا لغريزة الشهوة المركبة فيه كما هو الظاهر فقط، وإنما للنسل، والذى بواسطته يتوفر للإنسان غذاؤه من اللحم، واللبن

ومشتقاته، والصوف والوبر، والشعر لفراشه ولباسه، فى حين أن الحيوان ينصرف عن أنثاه فى حال حبلها، وتنقطع المودة بينهما، وذلك لعدم الحاجة إلى التعاون بينهما على تربية الولد، وحفظه كما هى الحال فى الإنسان فى تربية أولاده وحفظهم، ولعل هذه الظاهرة قد توجد فى الحيوان الذى يفتقر إليه ولده فى تربيته وحفظه إلى أمد معين، فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، هذا فى الإنسان والحيوان، وإنه ليبدو معقولاً، مقبولاً. أما فى النبات فإنه لم يأخذنى العجب من شىء فى ظواهر هذا الكون كما أخذنى من ظاهرة كيفية عملية لقاح شجر التين، وحقاً إنها لظاهرة جد عجيبة، تأخذ بلب المتأمل فيها، وبكل مشاعر الناظر إليها:

إنه يوجد فى نوع شجر التين شجر منه يعرف بذكر التين، وفى أوساط الربيع وبعدما يورق كل من ذكره وأنثاه يُخرج كل منهما حباً صغيراً هو ثمره المعتاد، غير أن الملاحظ فى ذلك أن حب الذكر يكبر بسرعة حتى إذا ما تهيأت الأنثى للقاح حسب سنة الله تعالى فيه كان حب الذكر قد ينع، فيأخذ الفلاح ثمرة الذكر اليانعة فيعلقها بأغصان الشجرة الأنثى، فيخرج من حبة الذكر المعلقة ذباب صغير فى غاية الصغر، ويعرف ذلك الذباب طريقه إلى حبة الأنثى فيدخل فى مكان على سطحها قد أعد لذلك هو أشبه ما يكون بفرج حيوان، فيدخل ذلك الذباب حاملاً معه مادة بيضاء قد علقت بجسمه الصغير ثم يخرج منها بعد أن يكون أتم عملية التلقيح، ليدخل فى حبة أخرى ليلقحها وهكذا حتى يلقح عدداً كثيراً من حبات التين الصغيرة المهيأة للتلقيح، وبعدها يموت ذلك الذباب وقد أتم مهمته التى خلقه الله تعالى لها، هكذا تتم هذه العملية المعقدة العجيبة التى هى من أقوى البراهين على وجود الله تعالى، وقدرته، وعلمه، وتدبيره، فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

والآن ونحن فى غاية التأثر والإعجاب بهذه الظاهرة الكونية فى لقاح شجر التين لا يسعنا إلا أن نسجل كلمة نستودعها الله تبارك وتعالى ليردها علينا يوم القيامة فينفعنا بها وهى أن ظاهرة كهذه فى لقاح هذا الشجر الطيب المبارك يستحيل أن تتم بالضرورة، أو الصدفة، أو الطبيعة كما يقول الملاحدة والطبيعيون، وإنما تتم بخلق وتقدير، وتدبير خلاق عليم، مدبر حكيم، هو الله رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما، ورب كل شئ ومليكه الذى أشهد شهادةَ علم ويقين: أنه الله الذى لا إله إلا هو القائم بالقسط، العزيز الحكيم. اللهم إنا نستودعك هذه الشَّهادة فَهى لنا عندك وديعة تردها علينا يوم القيامة. وأخيراً فهذا النظام فى الكون كله علويه وسفليه لم يكن إلا نتيجة قدر وعلم سبقاه، فكان كل شىء فى هذا الكون يتم على مقتضى ذلك التقدير الأزلى القديم الذى هو القضاء والقدر، والذى لا يتم إيمان عبد إلا به والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

القضاء والقدر

ولكى يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغى أن نرجع بالذاكرة إلى تلك الكلمات الثلاث التى قدمناها تمهيداً لبحث القضاء والقدر، وما أوردنا فيها من كلام فى خلق الكون والنظام الذى رُبط به، والسنن التى تحكم كل أجزائه وما وقفنا عليه من عجيب الخلق والتدبير فى هذا الكون كله: فى الإنسان، والحيوان فى النبات والجمادات، لقد رأينا أن النظام الشمسى فى غاية الدقة إذ لكل كوكب بل لكل نجم من النجوم ـ وهى بلايين ـ مساره الذى يسير فيه، ومداره الذى يدور عليه، وذلك على مر هذه الحياة الطويلة، ولم يقع أن خرج كوكب عن مداره الذى يدور عليه، ولا نجم عن مساره الذى يسير فيه، إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود.

كما رأينا سنن الله تعالى فى حياة الإنسان، والحيوان، والنبات نشوءاً، وتطوراً، ونماء، وبقاء، وفناء، وأن ذلك مربوط بسنن لا تتبدل، وبذلك انتظمت الحياة فهى تسير إلى غاياتها المحدودة لها، وعرفنا أن هذا هو سر القدر وتفسيره.

ومن هنا صح لنا أن نُعرف القدر والقضاء بأنهما: علم الله تعالى الأزلى بكل ما أراد إيجاده من العوالم، والخلائق، والأحداث، والأشياء، وتقدير ذلك الخلق، وكتابته فى الذكر الذى هو اللوح المحفوظ، كما هو حين يقضى بوجوده فى كميته، وكيفيته، وصفته، وزمانه، ومكانه، وأسبابه، ومقدماته، ونتائجه بحيث لا يتأخر شىء من ذلك عن إبانه[1]، ولا يتقدم عما حدد له من زمان، ولا يتبدل فى كميته بزيادة أو نقصان، ولا يتغير فى هيئة ولا صفة بحال من الأحوال، وذلك:

أولاً: لسعة علم الله تعالى الذى علم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعظيم قدرته عز وجل التى لا يحدها شىء، ولا يعجزها آخر، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وثانياً: لربطه تعالى الوجود كله بقانون السَّنن الذى يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء، هذان هما القضاء والقدر اللذان لا ينكرهما إلا مكابر مجاحد، أو جاهل معاند، إذ هما يتجليان فى شكل قوانين ثابتة تشمل كل كائن فى هذا الوجود من الفلك إلى النور والحلك، ومن الإنسان إلى الحيوان، ومن النباتات إلى الجمادات.

ولنستمع بآذان صاغية إلى الخلاق العليم، والصانع الحكيم سبحانه وتعالى وهو يخبر عن قدرته وحكمته فيه[2]، ومشيئته له، وقضائه به: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ**

---

(1) الإبان: بتشديد الباء الموحدة التحتية: الوقت والزمن الذى يوجد فيه الشىء.

(2) الضمير فى «فيه» عائد إلى القدر.

إلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: 22). ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: 19-21)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49). ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ (طه: 40). ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (الفرقان: 2)، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ (الأحزاب: 38). ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: 1 ـ 3).

هذا ولمَ ينكر القدر؟ والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر التى لا يستطيع أن يخرج عنها بحالَ من الأحوال، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبنى منزلاً أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة، ثم يأخذ فى بنائه، فيخرجه إن كان ذا قدرة وعلم كافيين، صورة طبق الأصل، فلا يختلف شيء مما قدره فيه، ولا يختلف فيه شيء عما رسمه له.

إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يُستغرب منه ذلك، بل يُحمد عليه، ويثنى عليه به، فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق العليم ذى القوة المتين؟!!

وإذاً فكيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نذكر هنا أن القدر قدران: قدر سلمه، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى، ولم ينكره أحد، أو يمار فيه آخر، وهذا النوع من القدر هو ما كان مثل خلق العالم، وما فيه من سنن، وما يجرى فيه من أحداث كالحياة والموت، والقحط والجدب، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها، وذلك ككونه يولد جميلاً أو دميماً، وطويلاً أو قصيراً، وفى زمن كذا دون غيره من الأزمنة، وفى بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً.

وككون القضاء مضى بسعادة المرء أو شقائه، كما مضى بتحديد رزقه وأجله، فهذا النوع من القدر هو من مراد قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: 22).

وقول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1] وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به،

(1) رواه الترمذى (قيامة/ 59)، وأحمد (1/ 293)، وابن أبى عاصم فى كتاب السنة.

يجب الرضى به، والتسليم للّه تعالى فيه ـ فإنه على وفق رضى اللّه تعالى، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقه، وإنه ما من حادثة تحدث فى الكون إلا وللّه تعالى فيها حكمة، عالية مقصودة، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى، ومطلق التسليم.

ثمرة الرضا بالقضاء

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة، وثمرات طيبة، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة أنه يُكسب صاحبه قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة ؛ إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ـ خلت أعماله من الحيرة والتردد، وانتفى من حياته القلق والاضطراب ؛ لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه فى غير ما خوف، ولا هيبة، ولا تردد، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماض، ولا يغتم لحاضر، ولا يؤلمه هَمُّ المستقبل، وبذلك يكون أسعد الناس حالاً وأطيبهم نفساً، وأصلحهم بالاً، وأهدأهم خاطراً، ومنها أيضاً أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلباً، وأكرمهم قولاً ونفساً ؛ إذ من عرف أن أجله محدود، ورزقه معدود فلا الجبن يزيد فى عمره، ولا الشح يزيد فى رزقه، نافس فى البطولات وسابق فى المكرمات.

ومما لاشك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة فى هذه الأمة، أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة فى نفوسهم، قوية فى قلوبهم فقد فاقوا الناس شجاعة وكرماً، وصبراً وحلماً، ومعرفة وعلماً، الأمر الذى تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة.

والآن يحسن بنا أن نجيب عن السؤال الذى أرجأنا الإجابة عنه وهو: كيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه ؟ فنقول: لقد علمنا من الكلمة التى استطردناها هنا عند إرجائنا الإجابة عن هذا السؤال أن القدر الذى وجد بين المسلمين من ينكره ويجادل فيه ليس هو القدر العام الذى يشمل الكون كله وما يجرى فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها، ولا قدرة له على دفعها أو تغييرها ؛ إذ هى جارية على نظام السنن التى يقول اللّه تعالى فيها: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: 43). وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد، حسنها وسيئها، صالحها وفاسدها، وأول ما ظهر القول فيه على عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الراشد، وذلك فى حدود المائة الأولى من الهجرة، قال به وأظهره ودعا إليه غيلان الدمشقى حتى قتله هشام بن عبد الملك، وهذا لا ينافى ما روى من أن القول بنفى القدر كان فى أواخر أيام الصحابة ﷺ ؛

إذ ما قيل فى تلك الأيام لم يعدُ كونه مجرد قول قاله فرد، أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله ﷺ كابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم حتى قضوا عليه، وأخمدوا نار فتنته إلى حين. ونفى أولئك النفر للقدر معناه: أن الأمور المتعلقة بأفعال العباد لم تقض أزلاً، ولم تكتب فى كتاب المقادير[1] ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها، ويبدو أن الطائفة التى قالت بنفى القدر بهذا المعنى قد دُحضت حجتها، وذهب باطلها وانتهت نهائياً من الوجود ؛ لأن نصوص الكتاب والسنة فى إثبات القدر الخاص والعام متكاثرة متضافرة بحيث يُعدّ منكرها كافراً لا مُقام له بين المسلمين، وها نحن نورد تلك النصوص تسجيلاً لها فى هذا المقام بهذه المناسبة ليرتادها القلب كلما رانت عليه آثار الشبه التى لا تبرح تمر بالقلب، وتُوجَد حوله للإغواء والفتنة، ومن تلك النصوص قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49). وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (الفرقان: 2). وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى: 1 ـ 3). وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: 22).

وقول الرسول ﷺ فى رواية لمسلم: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء**»[2]، وقوله ﷺ فى رواية للبخارى: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب فى الذكر كل شيء**»[3] وقوله ﷺ فى رواية أبى داود: «**أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: رب ماذا أكتب ؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»[4]، وقوله ﷺ لبعض أهل بيته وقد لاموا أنساً فى بعض تقصيره فى إحضار شيء طلبوه منه: «**دعوه فلو قضى شيء لكان**»[5] وقول ابن عمر رضي الله عنهما فى صحيح مسلم وقد أخبر بأن ناساً يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف[6]، قوله لمن أخبره بذلك: «إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم براء منى، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفق فى سبيل الله ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»[7]، وقد

---

(1) المراد من كتاب المقادير: اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شيء.

(2) مسلم (8/ 51). (3) البخارى (9/ 152)، والمراد بالذكر اللوح المحفوظ.

(4) أبو داود (2/ 527، 528)، وكذا رواه الترمذى (قدر/ 17)، وأحمد (5/ 317).

(5) هذه الرواية ذكرها ابن القيم فى كتاب القدر وهى ضعيفة سنداً، والحديث رواه أحمد (3/ 231)، عن أنس رضى الله عنه بلفظ: «خدمت النبى ﷺ عشرين سنة فما أمرنى بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامنى فإن لامنى أحد من أهله إلا قال: «**دعوه فلو قدر - أو قال: قضى - أن يكون كان**».

(6) الأنف: المستجد الذى لم يسبق به علم الله ولا قدره. (7) مسلم (1/ 28).

تقدم حديث ابن عباس عند الترمذى وفيه قوله ﷺ: «**رفعت الأقلام، وجفت الصحف**». غير أنه قد وجد فيما بعد من يقول بنفى القدر عن أفعال العباد، فزعم أن العبد يخلق أفعاله بنفسه، وأن اللّه تعالى لا دخل له فى ذلك، ولا عمل، وأن أفعال العباد لم تقدر ولم يعلمها اللّه تعالى قبل وجودها، وقالوا: كيف يفعل اللّه القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه، وهذا هو أساس شبهتهم التى بنوا عليها مذهبهم فى كون اللّه تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها لهم أو عليهم، وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله. وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى وهى قولهم: كيف يخلق اللّه أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها ؟ وأصبحوا بهذا يعرفون بالقدرية، أى نفاة القدر، ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح رباً يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال، وبطل بذلك التوحيد الذى هو أصل الدين وأساسه، ومن هنا سموا بمجوس هذه الأمة ؛ لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم فى أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه لا بمقتضى قدرة اللّه وعلمه.

الجبر وحقيقته

وعلى العكس من نفاة القدر كانت طائفة الجبرية من المعتزلة، وأول من ظهر منهم الجعد بن درهم، وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودى من يهود الشام، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان رئيس الطائفة الجهمية نفاة الصفات المعطلين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مذهب القدر كمذهب الجبر كليهما من صنع اليهود، لإفساد عقيدة المسلمين ؛ إذ سبق أن ذكرنا أن أول من قال بنفى القدر غيلان الدمشقى الذى قتله هشام بن عبد الملك فلا يبعد أن يكون غيلان هذا قد تلقاه من يهود الشام أيضاً.

وحقيقة الجبر: أن الإنسان لا يخلق أفعاله، ولا ينبغى أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز ؛ فهى نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار؛ إذ هى أفعال اللّه تعالى، أجراها على يد العبد بدون إرادة من العبد ؛ ولا اختيار ؛ ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله، وأنه لا يعاب منه فعل، ولا يلام عليه، ولو كان فى غاية القبح والفساد، ولذا كان هذا المذهب أفسد وأشد شراً من سابقه الذى هو مذهب القدرية والذى ينبغى الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً وفساداً من عقيدة نفى القدر فقد ظلت ظاهرة فى المسلمين، سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها، ولا رغبة فيها، ولعل السبب يعود فى ذلك إلى أن عقيدة الجبر هذه تلقى

التبعة عن العبد فيما يرتكب من المعاصى، وفيما يقارف من الذنوب، وتجعله معذوراً أمام نفسه، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير :

أصبحتُ منفعلاً لما يختاره ... منى فَفِعْلى كلُّه طاعاتُ

وكم قعد هذا المعتقد الخاطئ الفاسد بكثير من المسلمين عن العمل الجاد النافع فضعفوا، وهانوا، وأصيبوا بكل قاصمة للظهر، حتى أصبحوا المثل فى العجز والكسل، والتخلف فى ميادين العمل والإنتاج. ووجَد ـ بسببهم ـ العدو الكافر مجالاً للطعن فى عقيدة الإسلام والاحتجاج على المسلمين فيما أصابهم. ونزل بهم بسلوك هؤلاء الذين قتلهم مذهب الجبر، وأفسد عليهم دينهم ودنياهم، فأصبحوا يرون أحياءهم أمواتاً ويبررون موتهم وقعودهم عن كل خير يكسبه غيرهم، ويسعد به فى حياته يبررونه بمثل قول شاعرهم:

جرى قَلَمُ القضاءِ بما يكون ... فسيَّان[1] الترحُّلُ والسكونُ

جنون بك أن تسعى لرزقك ... ويرزق فى غيابته[2] الجنين

فلننظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل، لا يقود أهله إلا إلى خسران الدنيا والآخرة. أرأيت لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب ماذا كان يحدث للحياة ؟ كانت تنتهى وكفى !!

فسبحان الله ! ماذا يفعل التضليل بالناس ! وهذا شأن كل المذاهب الهدامة التى هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة، المدمرة فى العالم كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية، الناقمين عليها، ومن هنا فإنى لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر، كمذهب التشيع كأكثر طرق التصوف الكل طبخ فى مطابخ اليهود، وقدم طعاماً مسموماً للمسلمين ليموتوا به، ويهلكوا عليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والآن حان لنا أن نعرض عقيدة القدر والقضاء عرضاً أكثر وضوحاً وتحديداً من ذى قبل وتحت عنوان:

---

(1) سيان: بمعنى مُستَوٍ.

(2) غيابته: ظلمة الرحم.

لا جبر ولا نفى للقدر
الإنسان فاعل مختار
والله خالق الإنسان وخالق أفعاله

إنه قد صعب على غير الموفقين من الناس التوفيق بين كون الإنسان فاعلاً لأفعاله، مريداً لها، مختاراً فيها، مهيأ للثواب عليها إن كانت خيراً، وللعقاب عليها إن كانت شراً، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها، مع اعتقاد الله، وتنزيهه عن الظلم.

ومن هنا انقسموا فرقاً فقالت فرقة منهم: إن العبد هو خالق أفعاله بنفسه، وليس لله تعالى فيها دخل البتة، واعتذروا بكون أفعال الإنسان منها ما هو شر وقبيح يُنزه الله تعالى عنه، ولا تجوز نسبته إليه، فالتزموا بناء على هذا المذهب بمبدأ نفى القدر عن أفعال العباد، أى لم يعلمها الله تعالى أزلاً، ولم يقدرها، ولم تكتب فى الذكر (كتاب المقادير) ؛ ولزمهم فى معتقدهم هذا أن يكون للكون غير خالق واحد، وهو رد صريح لقول الله تعالى: ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ (الأعراف:54). وقوله: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (الصافات:96). وقوله: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ (الأنعام:102).

فكانوا بهذا مجوساً لإثباتهم خالقين مع الله تعالى فى الكون، وقد روى أحمد وأبو داود بسند حسن أن النبى ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»(1).

وقالت فرقة أخرى بعكس ما قالت الأولى، فكانوا على النقيض معهم: إذ قالوا: ـ

إن العبد لا إرادة له فى أفعاله ولا اختيار، وليس هو بالفاعل على الحقيقة أبداً، وإنما الفاعل هو الله عز وجل. وما ورد فى القرآن من نسبة الفعل إلى العبد كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** ﴾ (البقرة:197). وقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (النحل:91). إلى غير ذلك من الآيات التى تسند الفعل إلى العبد خيراً كان أو شراً، إنما هى نسبة مجازية علاقتها السببية ولم تكن نسبة حقيقية أبداً. إن هى إلا أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد، والعبد مجبور عليها، غير مريد لها. ولا اختيار له فى فعلها أو تركها. ولزمهم بذلك أن لا يكون فى فعل العبد حُسن ولا قبح، ولا خير ولا شر، وبالتالى فلا حساب عليها ولا عقاب. وبناء على مذهبهم هذا فإنه

---

(1) أبو داود (2/ 24، 25)، وأحمد (2/ 86، 125)، والفتح الربانى (1/ 140، 141)، وابن ماجه (مقدمة/ 10).

لم يبق من معنى لبعثة الرسل، وإنزال الكتب، ووضع الشرائع، ومن هنا كان هذا المذهب ـ الجبر والتعطيل ـ أسوأ، وأفسد، وأقبح من القدرية «نفاة القدر».

وقال فريق ثالث: إنه ما دام اللّه تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه فى قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** ﴾ (النساء:40).

وحرمه على نفسه وعلى عباده فى قوله فى حديث مسلم القدسى: «**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**»(1).

فكيف يجوز إذاً عقلاً أن يكتب على العبد أزلاً أعماله ليقوم بها حتماً، ثم يؤاخذه عليها ؟ بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة وقبحاً فقالوا: ما دام اللّه تعالى قد علم مصير العبد، وقرره، حيث قدره بكتابته فى كتاب المقادير العام (اللوح المحفوظ)، وأصبح العبد لا محالة صائراً إليه شاء أم أبى، أحب أم كره، فكيف يؤمر العبد إذاً وينهى، ويُطالب بفعل الطاعات، وترك المعاصى، والأمر قد بُت فيه، وفرغ منه، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير، وتقرر له نهاية، فمثل هذا يؤمر وينهى ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به ونُهى عنه، وعدمها.

(الإبليسية)

هذا ملخص هذا المذهب الثالث، وإنه ليبدو أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه، والقول بالجبر وعدمه، ولزمهم فى مذهبهم هذا ما أصبحوا به شراً من إبليس ألا وهو الاعتراض على اللّه تعالى، ونسبة الظلم إليه وهو المنزه عن الظلم، البعيد عن كل نقص سبحانه لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وأخيراً ينبغى أن تسمى هذه الفرقة الحيرى المترددة (بالإبليسية) وإن كانت شراً من إبليس .

وهدى اللّه أهل الإيمان والتقوى إلى الحق الذى اختلفت فيه تلك الفرق فضلت عنه وجانبته، وعاشت بعيدة عنه، وهى ما بين مجوسية نافية لأقدار اللّه تعالى، مثبتة باطلاً خالقين متعددين فى العالم، فى حين أنه لا خالق إلا اللّه سبحانه وتعالى.

وبين جبرية معطلة للشرع، منكرة للعقل، وبين إبليسية معترضة على اللّه تعالى فى قدره، نافية لمشيئته، وحكمته شاكة فى عدله ورحمة قضائه.

هداهم ـ أهل الإيمان والتقوى ـ إلى الحق بإذنه فآمنوا بقضاء اللّه وقدره، وعدله ورحمته،

---

(1) مسلم (8/ 17).

وإرادته ومشيئته، وحكمته وحسن تدبيره، وقالوا لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بقدر اللّه تعالى.

ذلك القدر الذى هو سر نظام الحياة، وهو علم اللّه الأزلى، وتقديره لكل شىء، وكتابته فى اللوح المحفوظ، والمعبر عنه أحياناً بالإمام المبين كقوله تعالى: ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ (يس:12).

فلا يزيد شىء عما كتب ولا ينقص، الأحداث الصغار التى تجرى فى هذا الكون كالأحداث الكبار، والأعراض والصفات كالأجسام والذوات، كل شىء كان منذ كان الكون أو سيكون إلى انقراض الكون، قد جرى به العلم، ومضى فيه التقدير، وكتب فى الذكر حتى عجْز الخاملين ؛ وكيس النابهين. روى مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ قوله: «**كل شىء يقدر حتى العجز والكيس**»[1]، وأخرج الشيخان عن علىّ أن النبى ﷺ قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة**». قالوا: يا رسول اللّه: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴾ (الليل:5-6) الآيات[2] كما روى البخارى أن النبى ﷺ قال لأبى هريرة: «**جف القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو ذر**»[3].

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء والقدر، والعدل والإرادة، والمشيئة والحكمة، ولم يصعب عليهم كما صعب على غيرهم التوفيق بين كون فعل العبد قد قدره اللّه تعالى، وكتبه عليه، وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء، وبين كون العبد فاعلاً لفعله مريداً له، مختاراً فى فعله وفى تركه، يحاسب به، ويجزى عليه. ولا بين كون العبد فاعلاً لفعله، وبين كون اللّه خالقاً للعبد وخالقاً لفعله. ولا بين كون اللّه يقضى للعبد ما شاء من قضاء، ثم يأمره وينهاه، ويجزيه حسب عمله الذى قُدر له، وكتبه له أو عليه، فقالوا: إن اللّه تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر، وسعادة أو شقاء قد قدره مربوطاً بأسبابه، فللخير أسبابه، وللشر أسبابه، كما قدر أن العبد يأتى تلك الأسباب، ويعمل بها بمحض إرادته التى قدرها له، وحرية اختياره الذى قضى له به، فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقُدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التى يفعلها غير مكره عليها. ولا مجبور على فعلها، والحجة فى ذلك قول الرسول ﷺ: «**إن اللّه إذا**

---

(1) مسلم (8/ 51، 52).

(2) متفق عليه بمعناه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 209)، والآيات من سورة الليل (5، 6).

(3) البخارى (7/ 5).

خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله ربه الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله ربه النار»[1]. ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة فى أن اللّه تعالى إذا كتب على العبد أزلاً السعادة، أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التى تُسعد أو تُشقى لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب، كما أن الاستدلال بنظام الكون العام له وجه أيضاً ؛ إذ الإنسان جزء من الكون كله، والكون جميعه مربوط بسنن وقوانين تحكمه إلى نهاية أجله فلم لا يكون إذاً الإنسان كذلك مبدؤه، وسعيه، ومصيره مربوط كذلك بسنن تحكمه لا يمكنه الخروج عنها بحال من الأحوال، وتلك هى نظام القضاء والقدر ؛ إذ أنه لا فرق بين الإنسان والكون إلا أن الإنسان منظور فى سعيه إلى إحدى غايتين: السعادة أو الشقاء، فهو واصل بسعيه إلى إحداهما لا محالة، فلذا اختلف سعيه عن سعى غيره من سائر الخلق، ومن أجل هذا أعطى قدراً زائداً عن سائر الخلق وهو الإرادة والاختيار فى سعيه، فالكون من غير الإنسان يسعى مسعاه الذى قدر له لا يخرج عنه لأنه غير منظور فى سعيه إلى إحدى الغايتين وإنما إلى غاية واحدة لا تتخلف فلذا لم يعط إرادة ولا اختياراً، وكان بعكسه الإنسان الذى أعطى الإرادة والاختيار فتحمل بهما الأمانة بعد أن رفضها الكون كله وأباها قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ (الأحزاب:72).

زيادة إيضاح:

ولمزيد التوضيح لهذه الحقيقة نقول: إن الإنسان مخلوق للّه تعالى، مربوب له كسائر الخلق كالشمس، والقمر والنبات والحيوان يقوم بفعله كما تقوم سائر المخلوقات بما أناط بها ربها تعالى من أفعال تقوم بها، وإنما الفرق بين الإنسان وسائر الخلق أن الإنسان أعطى إرادة واختياراً لعلة التكليف والجزاء عليه بخلاف غيره[2]؛ فإنه لا جزاء له على عمله الذى يقوم به لعدم منحه إرادة حرة، واختياراً كاملاً بحيث يكون إن شاء فعل وإن شاء ترك، فيصل إلى إحدى غايتيه بما أراده من عمله، واختاره لنفسه بمحض إرادته واختياره، ومن هنا لو أن العبد أكره على عمله، وأجبر عليه لم يترتب عليه حساب ولا جزاء بثواب أو عقاب لعلة فقده الإرادة الحرة، والاختيار التام.

---

(1) أخرجه مالك فى الموطأ (3/ 92، 93)، وأبو داود فى سننه (2/ 529)، والترمذى فى تفسيره سورة الأعراف (2)، وأحمد (1/ 45).

(2) ومن هنا كان المجنون والصبى والنائم والمكره والناسى لا مؤاخذة عليهم فى أفعالهم، لعدم وجود الإرادة والاختيار عندهم.

بهذا تم لأولئك الموفقين التوفيق بين كون فعل العبد قد قضاه الله تعالى أزلاً على العبد فهو فاعله لا محالة، وبين كون العبد مريداً لفعله مختاراً له يُثاب على حسنه ويعاقب على سيئه.

ولبيان حقيقة كون العبد فاعلاً لفعله قائماً به، والله خالقه، وخالق فعله نقول: إن الكون كله مخلوق لله تعالى، وليس ثَمَّ من خالق غيره سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (غافر:62).

والإنسان من جملة أجزاء الكون المخلوق ؛ فهو إذاً مخلوق، والله خالقه وخالق الكون كله، وهل المخلوق يخلق ؟ اللهم، لا.

إن الأفلاك تدور والكواكب تسير، والشجر ينمو، والحيوان يعمل عمله فيأكل، ويشرب، ويتوالد، فهل يقال لهذه المخلوقات من الكون إنها خالقة لأفعالها ؟ أم الله هو الذى خلقها وخلق أفعالها ؟ وإذا كان الجواب واحداً وهو أن الله تعالى هو الذى خلقها وخلق أفعالها، فبأى منطق تخرج أفعال العباد من هذا الحكم العام ؟ والإنسان من جملة أجزاء الكون مربوط بنفس السنن التى تربط الكون ! أمن أجل كون الإنسان مريداً لأفعاله، مختاراً لها ؟ فإن ذلك مُنحَه دون سائر الخلق لعلة أن يثاب على فعله، أو يعاقب فقط، فليس ذلك بمخرجه عن كونه عَبداً لله مربوباً له، الله خالقه، وخالق أفعاله بالقوة التى أودعها فيه، وأقدره على الفعل بها، كما خلق غيره وخلق أفعاله، وكما خلق سائر المخلوقات فى الأرض والسموات بسنن الخلق والتكوين التى أودعها الكون، وربطه بها، فسبحانه من إله خلاق عليم !!

بهذا قد تقررت هذه الحقيقة وثبتت ناصعة وهى أن الإنسان فاعل لأفعاله ليس خالقاً لها. والله جل جلاله خالق للإنسان، وخالق لأفعاله.

ونزيد الأمر توضيحاً، والحقيقة تقريراً فنقول: أليس الإنسان ينطق، ويسمع، ويبصر ويعقل، والله هو الذى جعله كذلك ؟.

أليس الإنسان يذهب ويجىء، ويأخذ ويعطى والله هو الذى أقدره على ذلك ؟ أليس الإنسان يحب ويكره، ويريد ويشاء ويختار، والله هو الذى هيأه لذلك ؟ إذاً فما دام الله تعالى هو الذى جعله وأقدره، وهيأه لكل أفعاله تلك فهو خالقه، وخالق أفعاله بلا جدل ولا نزاع. وكل ما فى الأمر أن الإنسان مريد لأفعاله الإرادية، مختار لها، والله هو الذى جعله كذلك لعلة الابتلاء والجزاء.

وهنا يقال للذى لا تنتهى وساوسه فى هذا الباب: يا عبد الله اخسأ، ولا تعدُ قدرك ! ولا تعترض على ربك، إنك تسأل ولا يُسأل، خلقك، ولم تخلقه، كنت به ولم يكن بك، وكان ولم تكن.

وقال أولئك الموفقون فى كون اللّه تعالى قدَّر للعبد أزلاً ما شاء من قدر، وقضى به عليه، ثم هو يأمره، وينهاه، ويجزيه بحسب استجابته لأمره ونهيه، وعدمها قالوا:

أولاً: إن اللّه تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، له الملك، وله الحمد، ولا يُسأل عما يفعل، وذلك لكمال علمه، وعدله، وحكمته، ورحمته.

وثانياً: أن فعل اللّه تعالى، وتقديره، وحكمه كله عدل وخير، فليس فى أفعال اللّه تعالى، ولا تقديراته، ولا أحكامه ظلم أو شر قط. قضى بهذا العقل، وصح به النقل، فهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ (النساء:40). ويقول: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ (فصلت:46).

ورسوله ﷺ يقول وهو يقرر هذه الحقيقة التى قدمنا: «**والخير كله فى يديك، والشر ليس إليك**»(1).

إن الظلم والشر، وإرادتهما لم تكن إلا من صفات المحدثين، وسمات المخلوقين. أما ذو العرش المجيد الفعال لما يريد، الغنى عن العبيد فقد تنزه عن الظلم وفعل الشر. وكيف وهو الآمر بالعدل فى قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ (النحل:90).

وهو الناهى عن الظلم، المحرم له فى قوله: «**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً ؛ فلا تظالموا**»(2). والمرغب فى فعل الخير بقوله: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ**﴾ (البقرة:197). وقوله: ﴿**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الحج:77).

وثالثاً: ما هو الظلم، وما هو الشر ؟ أليس فى مفهوم كل العقلاء هو وضع الشئ فى غير موضعه، وأن الشر هو كل فعل خلا من نفع، أو زاد ضرره عن نفعه ؟ بلى، وإذاً، فهل تعذيب عاص متمرد على ربه، فاسق باختياره وإرادته عن أمر مولاه، عازم على مواصلة الفسق، مصمم على المعصية ولو عاش دهر الدهاريز، وآباد الآبدين، ولم يحدث نفسه بالتوبة، ولم يردْها، وهو قادر عليها بما وهبه اللّه من قدرة، وما منحه من إرادة.

فهل يا معشر العقلاء تعذيب هذا الإنسان يعد ظلماً وشراً ؟ اللهم، لا.

---

(1) رواه مسلم (2/ 185).

(2) رواه مسلم (8/ 17).

رابعاً: إنه بحكم ملكية اللّه تعالى لعباده بخلقه إياهم، ورزقه لهم، وتدبيره لأمورهم ؛ كان له الحق المطلق فى أن يتصرف فيهم بما شاء، فلو عذبهم أجمعين لما كان ظالماً لهم، ولو رحمهم أجمعين لكانت رحمته خيراً من عملهم. وبهذا صح الخبر، إذ روى أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند لا بأس به عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبى ﷺ قوله: «**لو أن اللّه عز وجل عذب أهل السموات والأرض عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً فى سبيل اللّه ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار**»(1).

خامساً: إن اللّه تعالى لما قدر مقادير العباد من أعمار وأرزاق، وسعادة وشقاء قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه ـ إلا أن يشاء اللّه ـ كما هى الحال بالنسبة إلى سائر أجزاء الكون ؛ إذ الكل مربوط بنظام السنن، محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة.

ويشهد لهذه الحقيقة مثلُ قول الرسول ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»(2). والشاهد من هذا الحديث الصحيح إثبات نظام الأسباب ؛ فإنه لما كان لدخول الجنة أسباب ولدخول النار أسباب، فإن العبد مهما عمل من أعمال تخالف أسباب سعادته أو شقائه فإنه لابد فى النهاية أن يعمل مريداً بأسباب ما كتب له أو عليه فى كتاب المقادير ليوافق علم اللّه وتقديره، وهو فى نفس الوقت مريد مختار لم يُكره على فعل ما فعل، ولم يجبر على ترك ما ترك.

إن هذه الحقيقة المدهشة حَرِيَّة بالوقوف عندها، والتفكير فيها. إننى لا أشك فى أن عبداً يدرك كنه هذه الحقيقة إدراكاً صحيحاً سليماً، ثم لا يتصدع أمام عظمة اللّه تعالى، ولا يخر ساجداً بين يديه سبحانه وتعالى.

---

(1) أبو داود (2/ 527)، وابن ماجه (مقدمة / 10). وأحمد (5/ 182، 185، 189).

(2) متفق عليه، واللفظ لمسلم (8/ 44)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 207، 208)، والبخارى (4/ 135).

وبيان هذه الحقيقة: أن اللّه تبارك وتعالى قبل أن يخلق الكون بخمسين ألف سنة[1] علم أنه سيُخلق فى يوم كذا، وتاريخ كذا، فى مكان كذا عبد اسمه كذا، ووصفه كذا وكذا، وعلمه الذى سيختاره وبمحض إرادته واختياره هو كذا وكذا ليتحقق له به كذا وكذا من خير أو شر، من سعادة أو شقاء. وكتب ذلك كله فى كتاب عنده. وفى نفس الوقت المعين، والمكان المحدد يوجد ذلك العبد، ويربيه إلى غاية بلوغه أشده وهو صحيح، سليم الحواس، صحيح العقل، ثم تعرض له ـ العبد ـ أمور متعددة، وأحوال مختلفة فيختار منها ما يراه لنفسه وهو بعيد عن كل إكراه، أو إجبار. فيفعل الذى اختاره لنفسه بكامل حريته واختياره ؛ ثم يجد نفسه بالتالى قد وافق ما كتب اللّه له فى ذلك الكتاب الأزلى القديم، ولم يخالفه فى شىء، ولم يخطئه فى قليل أو كثير. فسبحان ذى العز والجبروت، سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت.

* * *

(1) روى مسلم رحمه الله عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**» (8/ 51).

إرادة الله تعالى ومشيئته

إن مما له صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر مسألة الإرادة والمشيئة

فلنسمع كلمة فى هذا الموضوع تبين لنا وجه الحق فيه، وتهدينا للتى هى أقوم وأحسن فى هذه المسألة الخطيرة من مسائل عقيدة المؤمن.

والكلمة فى هذا الموضوع تدور حول شيئين:

الأول: إثبات إرادة اللّه تعالى ومشيئته بالبرهانين النقلى والعقلى.

الثانى: هو أن إساءة فهم كثير من الناس لإرادة اللّه تعالى هو الذى أوقعهم فى ضلال مبين، وخطإ وشر عظيمين.

أما إثبات إرادة اللّه تعالى ومشيئته فإنه يكفى فى ذلك سرد الأدلة السمعية وهى أخباره تعالى، وأخبار رسوله ﷺ . ومنها قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ (البقرة: 185). وقوله: ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (النحل:40).

هذا فى إرادته تعالى، وأما مشيئته فيقول تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾ (الأنعام:112). وقوله: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (التكوير: 29).

ويقول ﷺ فى إثبات إرادة اللّه تعالى: «**من يرد اللّه به خيراً يفقهه فى الدين**»(1).

ويقول فى إثبات إرادة مشيئته تعالى: «**احرص على ما ينفعك، واستعن باللّه، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر اللّه وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(2)

إن فيما ذكرنا من أخباره تعالى، وأقوال رسوله ﷺ وهو قليل من كثير لدليلاً كافياً فى إثبات إرادة اللّه تعالى ومشيئته سبحانه وتعالى، ولنشفع هذا الدليل السمعى بالدليل العقلى فنقول: إن اللّه تعالى بكونه خالق كل شيء، وربه، ومليكه مستلزم لإرادته تعالى ومشيئته ؛ إذ لو لم يكن مريداً لكان مكرهاً، ولو كان مكرهاً لما تأتى له إيجاد العوالم، والتصرف فيها، والتدبير لها بمقتضى المصلحة والحكمة، كما أن كون الإنسان مريداً شائياً نقض لإرادة اللّه تعالى ومشيئته،

---

(1) رواه البخارى (4/ 103، 9/ 125)، ومسلم (3/ 95، 6/ 53،54)، واللؤلؤ والمرجان (1/ 218، 219).

(2) رواه مسلم (8/ 56)، وقوله فى آخر الحديث: «**ولكن قل: قدر الله**» روى بلفظ: قدر، بالدال المهملة المفتوحة بدون شدة، وروى بتشديد الدال.

إذ من غير المعقول أن يكون المخلوق مريداً شائياً، ويكون خالقه لا إرادة له ولا مشيئة، بل إن العقل يقضي بإثبات إرادة للخالق ومشيئة أعظم من إرادة الإنسان ومشيئته المخلوقتين منه. فلذا ما أراد المخلوق شيئاً ولا شاءه إلا وقد أراده الخالق وشاءه ذلك وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق، مستقلاً بالأمر عنه وهو محال عقلاً وشرعاً قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ** ﴾ (النحل:17). وقال تعالى: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (التكوير:29).

هذا في إثبات إرادة اللّه تعالى ومشيئته. وأما عن إساءة فهم كثير من الناس لهما، وما ترتب على ذلك من ضلال، وشر، وفساد، فإننا نقول:

إنه من غير المجازفة في الكلام إن قلنا: إنه ليس هنا في المؤمنين من ينفي إرادة اللّه تعالى ومشيئته، وإنما هناك سوء فهم لهما ترتب عليه ضلال لا يقل خطورة عن ضلال أهل الجبر، ونفاة القدر.

وهذه المسألة أيضاً الناس فيها طرفان ووسط، فهي نظير مسألة القضاء والقدر، وقد تقدم بيانها بما فيه كفاية لمن أخذ اللهُ بيده فحماه من زيغ القلوب !

فالوسط نجا هنا كما نجا هناك، والطرفان ضلاَّ هنا كما ضلاَّ هناك، واللّه المستعان.

وهذا بيان ضلال القوم: إن الطرفين منهما مفرِّط، ومنهما مفرط، فالطرف المفرط هو من زعم أن لا إرادة يخضع لها، ولا مشيئة إلا إرادته هو ومشيئته، فجميع أفعاله في زعمه لا تخضع إلا لإرادته وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يستثنى من ذلك إلا ما أكره على قوله، أو فعله بقوة سلطان قاهر له، ألجأه بالقوة المادية إلى قول ما لا يريد، أو فعله، وما عدا ذلك من تصرفاته فهو لا يخضع فيها إلا لإرادته ومشيئته فقط. وهذا الضلال في هذه المسألة هو ضلال الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود اللّه تبارك وتعالى، ولا بسلطانه على خلقه، وحكمه فيهم.

بيد أنه شاركهم فيه طائفتان من المؤمنين ! إحداهما تقول: إن اللّه تعالى منزه عن أن يريد ضلال ضال، أو كفر كافر، أو يشاء فعل الفواحش، أو ارتكاب القبائح. فنفوا بهذا إرادة اللّه تعالى، ومشيئته في أكثر حوادث العالم الجارية فيه، ولازم هذا المعتقد أن اللّه تعالى قد يقع في ملكه ما لا يريد، وأن هناك مشاركاً في خلق الحوادث، وإيجادها بإرادة مستقلة عن إرادة اللّه تعالى. وهذا قطعاً ضلال وشرك، يتبرأ منهما، ويستعاذ من مثلهما.

وقالت الأخرى وهي ممن لا رأى لهم في هذا الموضوع ولا علم، وإنما هي مجموعة جهلة المسلمين ومقلدتهم، وأكثرهم من مثقفة المستغربين، قالوا:

إنه لا دخل لمشيئة اللّه تعالى في أفعالنا، وإنما مرد أفعالنا إلى إرادتنا الخاصة، ومشيئتنا، فما

شئنا فعله فعلناه، وما لم نشأ فعله لم نفعله، ولهذا تراهم ينكرون بشدة على من يقول سأفعل كذا غداً إن شاء الله تعالى، ويردون عليه في غضب وزمجرة: لا تقل إن شاء الله قل سأفعل فقط. لا تقل لنا إن شاء الله، هذه الكلمة خلها جانباً، وقل سأفعل كذا وكفى !!!

ومن مظاهر ضلالهم هذا أن أحدهم يتكلم بأخبار مستقبلة خالصة للاستقبال، ولا يقيد خبراً واحداً منها بمشيئة الله تعالى، فيخبر أنه سيسافر، أو يبيع، أو يشترى، أو يبنى، أو يهدم، أو يأخذ، أو يعطى، ولا يقيد من ذلك بمشيئة الله تعالى شيئاً أبداً، بل يطلق أقواله إطلاق من لا يؤمن بغير إرادته ومشيئته. ولا أدل على ذلك من أن مذيعى النشرات الجوية فى أغلب الإذاعات، والتلفازات الإسلامية من عربية وعجمية يطلقون أقوالهم جازمين بوقوع مدلولاتها كأن الأمر لهم وحدهم، وليس لهم فيه مشارك. فيقول أحدهم ستهب الرياح غداً شرقية، أو غربية، وستنزل أمطار غزيرة أو ضعيفة فى منطقة كذا، وستتراكم السحب على كذا، أو تنزل ضخات مطر خفيفة على كذا إلى آخر ما يتنبؤون به ويقولون فى نشراتهم الجوية اليومية، ولم يقيدوا منها بمشيئة الله تعالى ولا إرادته ولا إذنه شيئاً، فدل ذلك على عدم إيمانهم بمشيئة الله تعالى، ولا إرادته، ولا أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن كان بينهم يؤمن بإرادة الله ومشيئته فإنه يترك الاستثناء بمشيئة الله تعالى خوفاً من الملاحدة حوله، أو مجاملة لهم فيصبح قريناً لهم فى الشرك والضلال، هذه حال الطرف المفرِّط.

وأما الطرف المفرط وهو لا يقل ضلالاً وباطلاً عن مقابله، فإنه يهدر ما منح الله تعالى عباده من إرادة، وما وهبهم من مشيئة تليق بآدميتهم، وتتفق مع ما هيأهم الله له من التكاليف التى يتقرر بها مصير العبد فى الحياتين. كما سبق بيانه عند الكلام على القضاء والقدر. فقالوا: إنه لا إرادة للعبد ولا مشيئة البتة وإنما الإرادة والمشيئة لله تعالى وحده، وأنكروا أن يكون للعبد إرادة أو مشيئة، فساقهم هذا المعتقد الفاسد إلى ضلال لا حد له، ولا حصر، حتى أصبحوا به معطلة أسوأ حالاً من الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله تعالى، ولا بشرعه، ولا بلقائه.

وانعكست عندهم الأمور، واختلطت الأشياء فأصبح القبيح عندهم حسناً والحسن قبيحاً، والكفر كالإيمان، والفسق والفجور كالطاعة والبرور ! فكل عامل عندهم هو مطيع لله سواء عمل بطاعته، أو عمل بمعصيته ؛ فالعامل بالمعصية مبرأ من تبعة عمله، وجريرة فعله فلا ذنب ولا وزر، وبالتالى فلا عذاب ولا عقاب، وذلك لأن كل عامل فى نظرهم هو يعمل بإرادة الله تعالى ومشيئته لا بإرادة نفسه ومشيئته، إذ العبد عندهم لا إرادة له ولا مشيئة !

ولنستمع لأحدهم وهو يترجم هذا المذهب الفاسد القبيح فى بيت واحد من الشعر فيقول:

أصبحت منفعلاً لما يختاره ... منى ففعلى كله طاعات

ومبنى هذا المذهب الباطل -الذى أهدر ما وهب الله تعالى عبده من إرادة ومشيئة، وأهدر بالتالى كل القيم والشرائع- مبناه على قاعدة تقول: العبد مطيع للإرادة موافق للمراد، يريدون إرادة الله تعالى ومراده. وعليه فلم يبق ذنب ولا مذنب على وجه الأرض ؛ إذ الناحر للإنسان مطيع للديان، والصائم الظمآن موافق لمراد الرحمن، فهما إذاً فى هذا المذهب سيان.

ودون هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت كذلك مبدأ ألا إرادة للإنسان، ولا مشيئة، ولكن ما قالوا هذا عن علم لهم، وفهم لديهم، وإنما قالوه اتباعاً للهوى، وجرياً وراء الشهوات.

إذ أن أحدهم يأتى ما يأتى من الباطل، ويرتكب ما يرتكب من المنكر والذنوب وإن قيل له فى ذلك قال: هذه إرادة الله حكمت بهذا، ومشيئته اقتضته، ولو شاء الله ما فعلت، وإنما أنا عبد لا أخرج عن إرادة الله ومشيئته، وهذه حال كثير من المسلمين اليوم، وقبل اليوم، منذ أن فشا الفساد فى عقائد الأمة، وانتشر الزيغ فى صفوفها نتيجة عمل يد الهدم والتخريب التى ما برحت تطعن فى جسم أمة الإسلام حنقاً عليها، وحسداً لها.

ولو كان هذا القول منهم نابعاً من اعتقاد صحيح، وهو أنهم خاضعون لمشيئة الله تعالى وأقداره فيهم لكان حسناً منهم، وصح لهم ولكنه لا صلة لله بقلوبهم البتة، وإنما هو مجرد قول يلوكونه بألسنتهم لدفع المذمة عنهم، والملامة عليهم، فكان شأنهم شأن المشركين الذين حكى القرآن قولهم: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**﴾ (الأنعام:148).

فإنهم لما دُعوا إلى عبادة الله وحده، وإلى ترك التحريم لما أحل الله تعالى من بحائر الإبل وسوائبها[1] احتجوا مبررين شركهم وافتراءهم على الله بمشيئة الله تعالى، وأنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا ؛ ولو شاء عدم تحريمهم لما حرموا ما حرموه، ولم يكن هذا منهم إلا دفاعاً عن باطلهم وضلالهم ؛ ولم يكن أبداً عن اعتقاد صحيح بأنهم خاضعون حقيقة لأقدار الله تعالى، عاملين بمراده، طالبين لرضاه، نازلين عن مشيئتهم لمشيئته؛ إذ لو كان هذا هو المراد من قولهم لكانوا به مؤمنين صادقين، وكان من السهل إقناعهم بترك الشرك بالله، والافتراء

(1) البحائر جمع بحيرة: وهى الناقة تنتج وتلد خمسة أبطن أو سبعة فتشق أذنها ويخلى سبيلها فلا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا يشرب لبنها، ولا يؤكل لحمها، والسوائب جمع سائبة: وهى الناقة التى يحرمها صاحبها ويتركها تقرباً للآلهة وأحكامها كأحكام البحيرة عندهم!!!

عليه ؛ لأن اللّه تعالى حرم ذلك، ونهى عنه، ولو كان مراداً له محبوباً لديه لما نهى عنه، وحرمه فى كتابه، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ.

وهنا يحسن التذكير بقاعدة جليلة، وحكمة ثمينة وضعها الهداة المهتدون من فرقة الوسط الناجون وهى: أنه لا يحتج بإرادة اللّه وقدره على المعائب ؛ ولكن يحتج بهما على المصائب، فالمعائب وهى الذنوب والمعاصى ما دام اللّه تعالى قد حرمها على عباده، وكرهها لهم ومنهم وأنزل بذلك كتبه، وبعث رسله، فإن العبد إذا غشيها مريداً لها ؛ وتلبس بها مختاراً غير مكره عليها،لا يصح عقلاً أن يحتج بالقدر الذى هو علم اللّه، وتقديره لأحداث الكون خيرها وشرها وكتابته لها فى كتاب المقادير (اللوح المحفوظ) بخلاف المصائب التى تصيب المرء ولم يكن قد تسبب فيها بترك طاعة ؛ أو مخالفة سنة من سنن اللّه تعالى الشرعية أو الكونية ؛ فإنه إن قيل له فى ذلك صح منه الاحتجاج بالقدر بل بالإرادة الكونية ؛ إذ لم يكن بإرادة منه ولا اختيار، كالرجل يسقط عليه جدار، أو تلسعه حية، أو تنقلب به سيارة ولم يكن قد علم بتصدع الجدار وجلس تحته، ولا بوجود الحية ونام عليها، ولا تجاوز حد السرعة المعتادة لسيره.

أما إن تسبب فى هذا فلا حق له فى الاحتجاج بالقدر، بل عليه أن يتحمل نتائج معصيته، ومعاقبة ربه تعالى له لمخالفته سننه، وإهماله الأسباب المشرعة لسلامته.

وبالمناسبة يُذكر هنا احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، قال موسى عليه السلام لآدم لائماً له: «**أنت أبونا خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة**»، فرد عليه آدم عليه السلام محتجاً على المصيبة التى شكاها موسى، وهى الخروج من الجنة قائلاً: «**أتلومنى على أمر قدره اللّه علىَّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة، فحج آدم موسى**» وغلبه فى الحجة؛ لأن المصائب يحتج فيها بالقدر، بخلاف المعائب؛ لأن المصيبة لم يُرِدْها الإنسان، ولم يأتها مختاراً لها مؤثراً إياها، وإنما تقع عليه بدون علم منه، ولا إرادة ولا اختيار، فيحسن الاحتجاج عليها بالقدر تخفيفاً من آلامها؛ وثقل وطأتها على النفس المصابة.

أما المعائب أى الذنوب فإن العبد يأتيها مريداً لها، وهو يعلم أن اللّه تعالى، قد حرَّمها وكرهها، فإذا فعلها لم يصح منه عقلاً ولا شرعاً أن يحتج عليها بإرادة اللّه تعالى، وقدره بحال من الأحوال.

وقد يكون من اللائق هنا رواية حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لسماع نصه كاملاً كما رواه الشيخان ؛ إذ جاء فيه عن أبى هريرة رضي الله عنه قوله: قال رسول اللّه ﷺ: (**احتج آدم وموسى، فقال موسى: «يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة ! فقال آدم: أنت موسى،**

اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟» فقال النبي ﷺ: «**فحج آدم موسى**»[1]، وقد روى هذا الحديث بألفاظ أخرى نكتفي بهذا اللفظ منها. والله المستعان.

سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى أوقعهم في الحيرة والخطأ

لقد ثبت بالتجربة والملاحظة أن خللاً بسيطاً يقع في جهاز ضخم كطائرة (الكونكورد) الفرنسية البريطانية، أو كبناية كبرى كناطحات السحاب الأمريكية قد يفسده ويدمره فيحيله إلى خراب ودمار. وكذلك الحال بالنسبة إلى عقيدة القضاء والقدر، والإرادة والمشيئة إذا وقع فيها أدنى انحراف، وبأي وجه، أو صورة أوقع صاحبه في ضلال وخطأ لا حد لهما.

إن أكثر الذين تبلبلت أفكارهم، واضطربت نفوسهم في عقيدة الإرادة والمشيئة من المسلمين كانوا ممن غفلوا عن كون القدر هو نظام الحياة الذي يحكمها من نواتها إلى نهايتها، وأنه يجب أن يمضي كما علم وكتب، وأن تغيير شيء منه معناه خراب الحياة بكاملها.

ولذا تحتم على العبد التسليم به، وله، وحرم عليه إنكاره، والاعتراض عليه، كما لا يجوز بحال الاحتجاج به، أو الاتكال عليه، هذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟؟

أو كانوا ممن جهلوا أن إرادة الله تعالى ـ ومشيئته منها ـ تنقسم إلى:

إرادة كونية قدرية، وهي تلك التي لا يناط بها تكليف الإنسان، ولا إثابته ولا معاقبته، وهي الإرادة التي كان بها القدر ونظامه. والتي لا حق للإنسان أن ينظر إليها بغير عين الرضا والتسليم، وإلا أصبح محارباً لله، معارضاً لنظامه، يدعي السمو إليه، والتعالي عليه، وهو مخلوقه الذي لا غنى به عنه[2] حتى في أنفاسه التي يرددها، والهواء الذي يتنفس فيه، والضوء الذي يبصر به، والظلام الذي يهجع فيه.

وإلى إرادة شرعية دينية وهي التي أناط الله تعالى بها تكليف الإنسان، وثوابه أو عذابه، وهي التي يجب على العبد أن ينزل عليها، ويطيع ربه فيها، كما يحرم عليه التمرد عليها، والخروج عنها، وهي التي قد نزلت ببيانها وتفاصيلها كتب الله تعالى، وبعثت للدعوة إليها، وتعليمها رسل الله عليهم السلام. وهي جميع ما شرع الله تعالى لعباده من عقائد وعبادات،

(1) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 211)، والبخاري (8/ 157)، ومسلم (8/ 49-51).

(2) الضمير في مخلوقه كالضمير في عنه كلاهما يعود إلى الله عز وجل.

وأحكام، وحدود، وآداب، ومحاسن، وأخلاق، وهي التي من أجلها منح الله تعالى العبد ما منحه من قدرة، وإرادة، ومشيئة، واختيار، ليبتليه مختبراً له أيستجيب لما أراده ربه منه، وشاءه له من عبادته وطاعته ؟ أم يرفض الاستجابة، فلا طاعة ولا عبادة؟!!

قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:2،3).

وهي الإرادة التي قد يتخلف فيها مراد الله تعالى ومحبوبه، فيأمر بها عباده، وينهاهم، ومنهم من يمتثل، ومنهم من لا يمتثل. فقد أمر تعالى عباده بالإيمان به، وبرسله، وبطاعته، وطاعة رسله، وأحب لهم الطاعة، وكره لهم الكفر، والفسوق، والعصيان(1).

وبما منحهم من القدرة، والإرادة، والمشيئة أمكنهم من أن يمتثلوا أو يرفضوا بمحض إرادتهم وكامل اختيارهم، ليرتب على ذلك جزاءهم بإثابة المحسنين وعقوبة المسيئين.

هذه هي الإرادة الدينية الشرعية كما ينبغي أن تعلم.

وأما الإرادة الكونية القدرية والتي سبق بيانها: فإن الله تعالى لم يجعل للعبد قدرة على الخروج عنها، والتمرد عليها بحال من الأحوال ؛ لأنها لا تتعلق بأفعال العباد الإرادية الاختيارية التي هي التكليف والجزاء إلا من حيث إنه تعالى شاءها أن تكون أزلاً كذلك، فكانت طرداً لعموم إرادته حتى لا يخرج الكون عنها.

وزيادة في الإيضاح للإرادة الكونية والتي لا سبيل للإنسان إلى الخروج عنها نقول: فهل يمكن للإنسان أن يرفض أن يكون ذكراً إذا كان أنثى ؛ أو العكس ؛ أو يرفض أن يكون أسود إذا كان هو أبيض، أو يرفض أن يكون قصيراً إذا كان هو طويلاً، أو يرفض أن يولد في بلد كذا أو تاريخ كذا إذا كان هو في بلد وزمان غير ما كان فيه ؟؟؟ والجواب في كل هذا، لا، ولم ؟ والجواب: هو أن إرادة الله تعالى الكونية لا يعصى فيها، ولا تتخلف بحال من الأحوال، لأنها مناط نظام الكون، وآية الربوبية، وموجب الألوهية لله سبحانه وتعالى، وبخلافها الإرادة الشرعية التكليفية المتعلقة بأفعال العباد الإرادية الاختيارية، فإن الله تعالى أقدر العبد على امتثالها، ورفضها ليبتليه ثم يجزيه.

---

(1) قال الله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات:7).

وأخيراً إنه لا يسع العبد أمام هذه العظمة الإلهية إلا أن يسجد للّه هيبة وإجلالاً. وأن يذكره ويشكره اعترافاً وتقديراً، وبذلك تتم كرامته، وتكتمل إنسانيته ويستقيم فى حياته استجابة لما أراد اللّه تعالى منه كوناً وتقديراً، وشرعاً ودِيناً.

الهداية والإضلال

ومثل الخطأ فى فهم الإرادة والمشيئة، الخطأ فى فهم الهداية والإضلال، فقد أساء كثيرون فهم مثل قول اللّه تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (إبراهيم:4). وقوله: ﴿ **كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (الأنعام:108). وقوله: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ (فاطر:8).

فقالوا: كيف يضل اللّه العبد ثم يعذبه ؟ وكيف يزين له سوء عمله ثم يعاقبه عليه ؟ وقالوا: أين العدل والرحمة فى ذلك ؟ فنصبوا أنفسهم بجهلهم خصوماً لربهم، فهلكوا بجهلهم، وشقوا بسوء فهمهم. ولو وفقوا لسلموا للّه تعالى فى حكمه. ولم يعترضوا عليه فى تدبيره لأمر خلقه ؛ إذ له الخلق وله الأمر، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يُسأل عما يفعل، وهو العزيز الحكيم، ولكن القوم لما لم يوفقوا سلكوا مسلك إبليس فى الاعتراض على اللّه عز وجل فأصابهم بذلك إبلاس وخذلان. ولو وفقوا ـ وقد عرفوا أن اللّه تعالى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء- للجأوا إليه تعالى راغبين خائفين، يسألونه الهداية، ويستعيذونه من الضلال ؛ إذ هو مالك الملك، القادر على كل شيء. لو وفقوا لأتوا بابه سائلين، وللاذوا بجنابه محتمين، حيث لاح طريق الهدى ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ (الكهف:17).

ولكن ما وفقوا فاتبعوا خطوات الشيطان، فباءوا بالحرمان، والذى قادهم لهذا الخسران والهوان جهلهم بربوبية اللّه تعالى، وسوء ظنهم فى الرحمن. فجهلهم بالربوبية التى من مقتضياتها التربية والإصلاح، ومن مستلزماتها الهداية والإضلال هو الذى جعلهم يسألون كيف ؟؟ وليس من حقهم أن يسألوا، وسوء ظنهم بربهم فى تقديره، وحسن تدبيره جعلهم يعترضون على حكمه، ويستخفون حكمته، فهلكوا بجهلهم، وسوء ظنهم بربهم.

فما أسوأ حالهم ؟! وما أخسر مآلهم ؟!

والحقيقة التى قد خفيت عليهم فضلوا هى أنهم لم يعلموا أن اللّه تعالى إنما يضل من يضل بعد أن يُعذَر إليه بتبيين سبل الهدى واضحة، ويمنحه القدرة الكافية على السير فيها، فإذا آثر

العبد ـ بعد العلم ـ الضلال على الهدى، ولاه الله ما تولى، فكان ذلك عدلاً منه تعالى، لا ظلم معه. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ (التوبة:115).

إنهم لم يعلموا أن الهداية كالإضلال كل منهما يتم حسب سنن الله تعالى فى خلقه، والسنة فى الإضلال كالسنة فى الهداية وهى الإيثار، والرغبة، والطلب، والعمل.

فمن آثر الهداية ورغب فيها، وطلبها وعمل بأسبابها تمت له. ووجد من الله تعالى عوناً له على تحصيلها وتحقيقها، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده، وفضله عليهم. ومن آثر الضلالة، ورغب فيها وطلبها، وعمل بأسبابها تمت له، ولم يجد من الله تعالى صارفاً عنها وهذا من عدل الله تعالى فى عباده، وحسن تدبيره فيهم.

وجهلوا سنة الله تعالى فى تزيين الأعمال لأصحابها، فأنكروا على الله تعالى ذلك، وقالوا: كيف يزين الباطل الشر لعبد حتى إذا فعله عاقبه عليه ؟؟

وما علموا أن هذا التزيين إنما حسب سنة إلهية لا تتخلف، وهى أن المرء إذا آثر العمل باختياره، وأحبه من نفسه، ولازمه غير منفك عنه زمناً طويلاً أصبح ذلك العمل زيناً له، حسناً عنده، وإن كان شيئاً قبيحاً عند غيره. والعمل الفاسد كالعمل الصالح فى هذه السنة كلاهما يُزين لفاعله بهذه الطريقة.

غير أنه من رحمة الله تعالى بعباده، وعظيم إحسانه إليهم أن حذرهم فى كتبه، وعلى ألسنة رسله عليهم السلام، حذرهم من استدامة العمل الفاسد، والإصرار عليه، ودعاهم إلى تركه، والتوبة منه، قبل أن يبلغ من نفوسهم حد التزين، ويصل إلى مستواه، فيزين لهم حسب سنة الله تعالى، ويومها يتعذر عليهم تركه، والإقلاع عنه.

وفى هذا يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر:8). ويقول: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ (الأنعام:108).

فمن استجاب لتحذير الله تعالى، وترك فاسد الأعمال، وسيئها نجا، ومن تجاهل التحذير، وواصل فى سبيل الغى السّير هلك، ومن نجا فقد نجا برحمة الله وفضله، حيث هيأ له أسباب النجاة، وأعانه على الأخذ بها، ومن هلك فقد هلك بعدل الله تعالى حيث نهاه عن الغى، فآثره على الرشد، ودعاه إلى التوبة، فرفضها، وأصر على خلافها حتى وصل فى عمله حد التزيين فزين له فرآه حسناً، وبذلك فقد الاستعداد لقبول دعوة الخير والهدى، ومضت فيه سنة الله فى التزيين، فهلك مع الهالكين، ولا عدوان إلا على الظالمين: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل: 33).

الجزاء من ثواب وعقاب

قائم على أساس الرحمة والعدل

ومن غفلة بعض المؤمنين عن كيفية إجراء الثواب والعقاب على العباد فى الدنيا والآخرة تورطوا فى جدل وخصومات لا معنى لها، ولا داعى إليها فى مسألة العدل والظلم.

حتى ضل منهم خلق كثير. وفتنتهم جاءت من غفلتهم عن نظام السنن الذى هو نظام القدر ،ونابع منْه، وداخل فيه، وليس خارجاً عنه، ولا متنافياً معه.

وهذا بيان ذلك: إن اللّه تعالى جعل للأعمال الإرادية الاختيارية التى يقوم بها الإنسان أثراً فى نفسه، وبحسب ذلك الأثر يكون الجزاء من ثواب وعقاب.

ومن هنا كان العمل اللاإرادى كعمل الناسى، والمخطئ، والمكره، والمجنون لا تأثير له على النفس، أعنى أن النفس البشرية لا تتأثر بذلك العمل حسب سنة اللّه تعالى فى ذلك. وعليه فلا ثواب ولا عقاب.

أما ما كان من العمل إرادياً اختيارياً ؛ فإنه لا محالة من تأثر النفس به، فإن كان العمل صالحاً أى من الأعمال التى شرعها اللّه تعالى لعباده لتزكية أرواحهم وتطهيرها، لتتأهل بذلك لمجاورته سبحانه وتعالى فى الملكوت الأعلى كان التأثر والانطباع وصفاً حسناً للنفس، ويسمى ذلك الانطباع حسنة، وقد يطلق لفظ الحسنة على نفس العمل المسبب لذلك على سبيل المجاز الذى علاقته السببية.

وإن كان العمل سيئاً أى مما جعله اللّه تعالى حسب سنته مؤثراً فى النفس بالظلمة والتدسية ليكون مؤهلاً للإنسان لمجاورة الشياطين فى جهنم من عالم الشقاء كان الانطباع أو الأثر وصفاً سيئاً للنفس، ويسمى ذلك الانطباع سيئة، وجمعها سيئات. كما قد يطلق لفظ السيئة على العمل المكسب لها إطلاقاً مجازياً علاقته السببية أيضاً، وقد جاء فى هذا عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس:9، 10). وقوله: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (الانفطار: 13، 14).

فالوصف مشعر بعلة الحكم، فالبرور والفجور هما سبب دخول النعيم والجحيم، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (البروج: 11).

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (الزخرف: 74 ـ 76).

فالإيمان والعمل الصالح سبب فى تطهير النفس، والإجرام بالشرك والمعاصى سبب فى تدنيسها، وبحسب ذلك الأثر الطيب أو الخبيث يكون الجزاء بالثواب والعقاب. ومصداق هذا وارد فى كتاب اللّه تعالى فى قوله تعالى: ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام:139).

إنه وإن كان للآية الكريمة معنى غير الذى أوردنا وهو أنه تعالى سيجزى المشركين بوصفهم الكذب بما حرَّموا من الأنعام والحرث افتراء على اللّه تعالى فإن المعنى الذى أردناه قائم بالآية أيضاً، وهو أن الجزاء على الأعمال الصالحة، والسيئة يكون بحسب الوصف المكتسب منها للنفس البشرية التى اقتضت سنة اللّه تعالى انطباعها بأفعال العبد الإرادية الاختيارية. مما جعله اللّه تبارك وتعالى مؤثراً فى النفس، وذلك من كل ما شرع من الأعمال الصالحة، وما حرم ومنع من الأعمال الضارة الفاسدة مما يقوم به، ويعمله قلب الإنسان، وجوارحه على حد سواء.

وبناء على هذا فإن الجزاء جار على أساس من الرحمة الإلهية والعدل: فالعبد يكسب عمله بمحض إرادته واختياره، فإن كان الكسب مما يحب اللّه تعالى حيث شرعه لعباده، وأمرهم به، ورغبهم فيه، وأعانهم عليه، بعد ما وفقهم للقيام به ثم أثابهم عليه الحسنة بعشر أمثالها، فكان جزاء تغلب عليه الرحمة والإحسان، وإن كان الكسب مما كره اللّه تعالى لعباده، ونهاهم عنه، وحظره عليهم تخلى اللّه تعالى عن فاعله خذلاناً له ؛ لأنه آثر معصيته على طاعته، وسخطه على رضاه، ثم هو إن لم يغفره له بموجب من موجبات المغفرة كالتوبة، أو العفو الإلهى، وعاقبه عليه كان العقاب بمحض العدل، السيئة بمثلها فلا حَيف ولا ظلم.

وهكذا فقد تقرر ما توخيناه من إثبات هذه الحقيقة وتقريرها، وهى أن الجزاء والثواب والعقاب على كسب المرء قائم على أساس الرحمة والعدل الإلهيين، خال من كل معنى للإساءة أو الظلم. وصدق اللّه العظيم ؛ إذ يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:40).

* * *

الحسنة والسيئة من الله تعالى أو من النفس

بين يدى الحديث عن الحسنة والسيئة، وهل هما من عند اللّه تعالى ؟ أو الحسنة من اللّه، والسيئة من النفس، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾ (النساء:78).

مع قوله عز وجل من نفس السورة، وذات السياق: ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ (النساء:79).

أقول بين يدى تحقيق هذه المسألة، والتى هى جزء هام من مسائل عقيدة المؤمن، وذات صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر، والجبر والاختيار، والإرادة والمشيئة، والجزاء بالرحمة، والعدل، وهما ما سبق لنا القول فيه بالتفصيل، وبالقدر الذى فتح اللّه علينا به، ورأينا أنه كاف والحمد للّه فى تحقيق المعتقد الذى يُرضى اللّه تعالى، ويرضاه من عبده، ويرضى به عنه. أقول: إن الحسنة وهى ما يحسن لدى الإنسان مما يلائم مزاجه فيورث باطنه صفاء وطهراً، أو جسمه نعومة ونضرة، وهى بهذا المعنى قسمان:

الأول: حسنة سببها الإيمان والعمل الصالح، أو هى حسنة الطاعة للّه ورسوله محمدﷺ.

الثانى: حسنة سببها الإنعام الإلهى على العبد بما يريح جسمه من الوصب، ونفسه من الغم والهم، وذلك بما يؤتيه من مال، وسلامة بدن، ونصر، وعز، ومجد.

والسيئة ضد الحسنة وهى ما لا يحسن لدى الإنسان مما لا يتلاءم مع مزاجه وطبعه، أو هى ما يسوءه فى باطنه، ويضره فى ظاهره، وهى بهذا المعنى قسمان أيضاً:

الأول: سيئة سببها الشرك والمعاصى ؛ إذ هما حسب سنة اللّه تعالى يورثان النفس ظلمة وخبثاً، فتمرض لذلك وتشقى.

الثانى: سيئة سببها الانتقام الإلهى، وذلك كأمراض الجسم وعلله، وضياع المال، والهزيمة فى الحروب، وفقد الشرف، وذهاب الكرامة.

وبناء على هذا الذى تقدم فالحسنة التى هى بمعنى الطاعة لله ورسوله ﷺ يوفق العبد لفعلها، والإتيان بها على الوجه الذى شرع الله تعالى لعباده، هذه الحسنة لا تُنسب إلا إلى الله تعالى، إذ هو الذى شرعها للعبد، وعلمه إياها، وأمره بفعلها، وأعانه عليها، ووعده بحسن المثوبة عليها ترغيباً له فى فعلها، كما أنه كتبها له أزلاً وقضى بها له قدراً. فهذه الحسنة نسبتها إلى غير الله تعالى خطأ فاحش لا يُقَر عليه أبداً.

والسيئة التى هى بمعنى معصية الله تعالى ورسوله ﷺ، ومخالفتهما فى أمرهما ونهيهما، هذه السيئة إذا فعلها العبد بإرادته واختياره مؤثراً المعصية على الطاعة، والمخالفة على الامتثال، فهذه السيئة لا تُنسب إلا إلى العبد فاعلها، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبداً؛ لأن الله تعالى لم يشرعها، ولم يأمر بها، ولم يرغب فيها، بل حرَّمها، وتوعد عليها منفراً منها فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى ؟ اللهم لا، وكيف والله تعالى يقول: ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ (النساء:79).

وأما إن كانت الحسنة بمعنى النعمة والبلاء بالخير كالمال والولد، والصحة والعافية فى ذلك، وكالنصر والظفر، والعز والجاه، وكانت السيئة بمعنى النقمة والابتلاء بالشر، وذلك كالنقص فى المال والنفس والهزائم فى الحروب، وما إلى ذلك من الشدائد والكروب فكلاهما ـ أى الحسنة والسيئة ـ من هذا النوع ـ كلاهما من عند الله تعالى، لأنه عز وجل هو الذى يبلو عباده امتحاناً، وانتقاماً حسب مقتضيات رحمته فى تربية عباده، وتدبير شأنهم. قال تعالى: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ (الأنبياء:35). وقال عز من قائل: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ** ﴾ (الفجر:15 ـ 17).

ومن هنا لما كان المنافقون بالمدينة ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى، وينسبون السيئة بمعنى النقمة، والبلاء، والشر ينسبونها إلى رسول الله ﷺ رد الله تعالى عليهم قولهم هذا، وعابه عليهم، ونسبهم إلى سوء الفهم، وقلة الإدراك، وأخبر مقرراً أن كلاً من هذين النوعين

من الحسنة والسيئة هما من عند اللّه تعالى. قال عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء:78).

وبهذا زال والحمد للّه الإشكال الذى كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى يكادون أن يقولوا: إن بين الآيتين تناقضاً أو تعارضاً فى حين أنه لا تناقض بينهما، ولا تعارض وحاشا كتاب اللّه تعالى أن يضرب بعضه بعضاً تناقضاً أو تعارضاً، وكيف يكون ذلك واللّه منزله وهو العزيز الحكيم يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:41 ـ 43).

ويحسن التنبيه هنا إلى أن العبد وإن نسبت إليه السيئة التى هى المعصية للّه ولرسوله ﷺ، والتى يترتب عليها تدسية النفس وتلوينها ليس معنى ذلك أن العبد قد فعل ما لم يكن قد كتب عليه أزلاً، وقضى به عليه قدراً ،لا واللّه، بل ما فعل العبد إلا ما كتب عليه أن يفعله، كما أن كون العبد أبى المعصية باختياره وفعله بنفسه مريداً لها، لا يدل على أنه خلق فعله فيها، بل الخالق هو اللّه الذى خلقه وخلق إرادته واختياره.

وإنما لم تنسب السيئة التى هى المعصية للّه ورسوله ﷺ لم تنسب إلى اللّه تعالى ؛ لأن اللّه تعالى قد حرَّمها، ونهى عن فعلها، وتوعد عليها، ولم يرضها لعبده كما رضى له الطاعة، إذ قال تعالى: ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر:7).

مع العلم والتسليم بأن اللّه تعالى لو شاء أن يحول بين العبد وبين فعله المعصية أو الطاعة لفعل، وهو على ذلك لو شاء قدير، لكنه لم يفعل، لأنه خلق هذا المخلوق ليبتليه فى هذه الحياة قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:1، 2).

فلذا مُنح العبد إرادة واختياراً يتأتى لكل امرئ بهما أن يسلك أى سبيل من سبل الهدى أو الضلال، الغى أو الرشاد، وبسلوكه الذى أراده واختاره يصل إلى الغاية التى جعل السبيل مؤدياً إليها ـ سنة اللّه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (فاطر:43).

بحث مهم فى المشيئة

وأخيراً إنه قد يظن البعض أن مشيئة العبد كافية فى إيجاد ما يريده، ويرغب فى حصوله، وهو ظن باطل خاطئ قطعاً. وذلك: ـ

أولاً: أنه قد ثبت بالمشاهدة والحس أن العبد كثيراً ما يريد الشيء، ويرغب فى تحصيله، ويبذل كل وسيلة من شأنها أن تحقق الشيء المطلوب، ثم يخيب العبد فى سعيه، ولا يفوز بمراده.

وثانياً: أن القدر قد سبق فى كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فلم يكن فى الكون إلا ما كتب أزلاً، وقُدر أن يكون. وبهذا يعلم أن مشيئة العبد التى يتحقق بها المراد هى نفسها مكتوبة أزلاً، ومحكوم بوجودها فى إبَّانها ليتحقق بها ذلك الفعل الذى أراد العبد أن يفعله، وآثر فعله واختاره على غيره وفى هذا يُقرأ قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (التكوير: 29).

وتوضيح ذلك أن العبد ليس له أن يشاء إلا ما سبق به الكتاب فإذا سبق كتاب المقادير بشيء يقع على يد العبد أوجد اللّه تعالى للعبد مشيئة تدفعه إلى إتيان العمل وخلق له اختياراً فى نفسه يرجح به الفعل على الترك فيكون ذلك المقدور.

وبهذا تتأكد الحقيقة العظمى وهى أن الرب غير العبد، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب، وسابقة لها، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى: لم فعل كذا ؟ أو لِمَ لَمْ يفعل كذا، قال تعالى: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ (الأنبياء: 23).

* * *

الخاتمة

وأخيراً إن الإيمان بجميع أركانه، وإن كان مطلوباً لذاته كما هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة المطالبة بذلك كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: 136).

وكقول الرسول ﷺ في جواب من سأله عن الإيمان: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[1].

فإنه بالنظر إلى ما يترتب عليه من حب الله تعالى، وتعظيمه، وخشيته، والإنابة إليه، وطاعته بفعل محابه، وترك مكارهه، وحب رسوله، وتعظيمه وطاعته والتأسي به، ومتابعته، هو وسيلة لا غاية، ذلك أن الباعث النفسي على طاعة الله تعالى بالاستقامة على شريعته هو الإيمان بالله تعالى بصادق وعده ووعيده، إذ لولا ذلك ما تمت الاستقامة لأحد على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ. لهذا صح أن ينظر إلى الإيمان على أنه وسيلة لابد من تحقيقها، وذلك لتوقف الاستقامة عليه.

وهذا بيان ذلك: ـ

١ ـ **الإيمان بالله تعالى** وسيلة لطلب معرفته بأسمائه وصفاته، ولحبه وتعظيمه، وطاعته وخشيته، والتقرب إليه بفعل محابه، واجتناب محارمه، يشهد لهذا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (الأنفال: 1). إذ علق تعالى حصول ما طلبه منهم على إيمانهم.

٢ ـ **الإيمان بالملائكة** وسيلة إلى الاعتبار بطاعتهم؛ لأنهم: ﴿ **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (التحريم: 6).

ووسيلة إلى الاستحياء منهم، والاستئناس بهم لعلم المرء بأن الكرام الكاتبين عن يمينه وشماله لا يفارقونه، كما أنه وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم[2]، وقدرته عليهم؛ إذ يقول تعالى: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (النحل: 50).

٣ ـ **الإيمان بالكتب** وسيلة إلى الإيمان بالله تعالى، ومعرفة علمه، وأسمائه، ووعده ووعيده، كما هو وسيلة إلى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها، وأنزلت عليهم، ووسيلة أيضاً

---

(1) رواه مسلم (1/ 31).

(2) جاء في الصحيحين: أن الرسول ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح. اللؤلؤ والمرجان (1/ 41)، والبخاري (4/ 140)، ومسلم (1/ 109).

إلى معرفة شرائع الله تعالى، وجميع ما يحبه الله، ويرضاه، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات، والأقوال، والأفعال، وإلى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخرة.

٤ ـ **الإيمان بالرسل** وسيلة إلى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى، وبيان كيفيات أداء عباداته، ووسيلة إلى محبة الرسل الباعثة على طاعتهم، واتباعهم والتزام شرائعهم.

٥ ـ **الإيمان باليوم الآخر** وسيلة إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات بما يوجد في النفس من الرغبة فيما عند الله من خيرى الدنيا والآخرة، وبما يوجد لها من الخوف من عذاب الله، والرهبة من عقابه.

٦ ـ **الإيمان بالقدر** وسيلة إلى ترك الحزن على ما فات من متاع الحياة، وترك الفرح الحامل على البطر والأشر بما يُؤتى الإنسان من حطام الدنيا، ومتاعها الزائل. كما هو وسيلة إلى الصبر والتحمل، والطمأنينة والسكون(١).

وبناء على كل الذى سبق فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة المكونة لعقيدة المؤمن يثمر للمؤمن ثمرة خاصة، فالإيمان بالله تعالى يثمر محبة الله، وتعظيمه، وطاعته، وخشيته. والإيمان بالملائكة يثمر الاعتبار بطاعتهم، والاستحياء منهم، والاستئناس بهم، والإيمان بالكتب والرسل يثمر قوة الإيمان بالله تعالى، ويثمر معرفة شرائعه، وكيفيات أدائها. والإيمان باليوم الآخر يثمر الرغبة فى فعل الخيرات، والنفرة من الشرور، والمفاسد، والمنكرات. والإيمان بالقدر يثمر سكون النفس، ورضاها، وطمأنينة القلب، وهدوءه، وهدايته، وذلك بتخليص النفس من الفرح بالحياة الدنيا، والغم على ما فات منها، ومن الهم على ما قد يفوت المرء منها.

وبالنظر فى هذا والتأمل فيه نجد أن الإيمان وسيلة للحصول على تلك الثمرات التى يثمرها كل جزء من أجزائه، كما نجد أن تلك الثمرات هى وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهى كمال الإنسان الذاتى والروحى وسعادته فى الدنيا والآخرة ؛ إذ كل كمال للإنسان، وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله تلك الطاعة المزكية للنفس، والمؤهلة للإنسان لدخول دار السلام.

قال الله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ (الشمس: 9، 10). وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا** ﴾ (النساء: 69، 70).

تم تحرير هذا الكتاب فى الفاتح من رمضان سنة 1396 هـ والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ (الحديد: 22، 23).

المراجع

أ ـ في التفسير:

1 ـ أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين الشنقيطى، المتوفى 1393هـ الطبعة الأولى بمطبعة المدنى.

2 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـ لأبى السعود ـ طبعة دار العصور للطباعة والنشر.

3 ـ التسهيل لعلوم التنزيل ـ لابن جزى، المتوفى (741هـ) ـ الطبعة الثانية (1393 هـ 1973م) الناشر دار الكتاب العربى ـ بيروت.

4 ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير، المتوفى (774هـ) مطبعة عيسى البابى وشركاه.

5 ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ـ لابن جرير الطبرى، المتوفى (301هـ) الطبعة الثانية (1392 هـ ـ 1972م) دار المعرفة للطباعة والنشر.

6 ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، المتوفى (671هـ) الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية.

7 ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ـ للألوسى، المتوفى (1270هـ) الطبعة الثانية المطبعة المنيرية.

8 ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ـ لنظام الدين النيسابورى المعروف بالقمى مطبوع مع تفسير ابن جرير.

9 ـ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى، المتوفى (1281هـ) مطبعة الحلبى وأولاده.

10 ـ الفتوحات الإلهية على الجلالين لسليمان الجمل، المتوفى (1204هـ) مطبعة الحلبى وشركاه.

11 ـ فى ظلال القرآن لسيد قطب ـ الطبعة الثانية ـ بمطبعة الحلبى وشركاه.

12 ـ المنار للإمامين محمد عبده ورشيد رضا، المتوفى (1354هـ) ـ الطبعة الرابعة أصدرتها دار المنار بمصر (1373هـ، 1954م).

ب ـ كتب الحديث:

1 ـ تحفة الأحوذى على جامع الترمذى ـ للمبارك فورى، المتوفى (1373هـ، 1954 م) مطبعة الحلبى.

2 ـ الترغيب والترهيب للمنذرى، المتوفى (656هـ) الطبعة الثانية (1373هـ- 1954م) مطبعة الحلبى.

3 ـ تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطى، المتوفى (911هـ) مطبعة الحلبى.

4 ـ جامع الأصول لابن الأثير الجزرى، المتوفى (606هـ) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط الطبعة الأولى (1389هـ، 1969م) مطبعة الملاح.

5 ـ جمع الوسائل فى شرح الشمائل ـ لعلى القارى، المتوفى (1014هـ) ـ الطبعة الثانية بمطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت.

6 ـ سبل السلام على بلوغ المرام للصنعانى، المتوفى (1182هـ) الطبعة الرابعة (1379هـ، 1960م) مطبعة الحلبى.

7 ـ السندى على سنن ابن ماجه القزوينى ـ السندى، المتوفى (1138هـ) الطبعة الأولى بالمطبعة التازية بمصر.

8 ـ سنن أبى داود ـ الطبعة الأولى (1371هـ ـ 1952م) مطبعة الحلبى.

9 ـ سنن الترمذى ـ للترمذى، المتوفى (279هـ) المطبعة الوطنية بحمص ـ (1385هـ، 1965م).

10 ـ سنن الدارمى ـ لعبد الله الدارمى، المتوفى (225هـ) بتحقيق عبد الله هاشم يمانى ـ شركة الطباعة الفنية المتحدة.

11 ـ السيوطى على النسائى ومعه حاشية السندى (1163) ـ المطبعة المصرية بالأزهر.

12 ـ شرح الموطأ للزرقانى ـ مطبعة مصطفى محمد (1355هـ ـ 1936م).

13 ـ شرح النووى على صحيح مسلم ـ للنووى، المتوفى (676هـ) المطبعة المصرية ومكتبتها.

14 ـ صحيح البخارى ـ للبخارى ـ مطبعة محمد على صبيح وأولاده ـ تسعة أجزاء، صحيح مسلم ـ لمسلم، المتوفى (261هـ) منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.

15 ـ عمدة القارى شرح صحيح البخارى ـ للبدر العينى، المتوفى (855هـ) المطبعة المنيرية.

16 ـ عون المعبود شرح سنن أبى داود. الطبعة الثانية (1388هـ ـ 1968م).

17 ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى ـ لابن حجر العسقلانى، المتوفى (852هـ) طبعة الحلبى (1378هـ، 1959م).

18 - الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى - للساعاتى - الطبعة الأولى - مطبعة الفتح الربانى.

19 - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - لمحمد فؤاد عبد الباقى - الطبعة الأولى - مطبعة الحلبى.

20 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - لنور الدين الهيثمى، المتوفى (807هـ) الطبعة الثانية (1967م).

21 - مستدرك الحاكم على الصحيحين - للحاكم، المتوفى (405هـ) - نشر مكتبة مطابع النصر الحديثة بالرياض.

22 - مسند الإمام أحمد - لأحمد بن حنبل، المتوفى (241هـ) الطبعة الأولى (1389هـ، 1969م) المكتب الإسلامى دار صادر.

جـ - كتب العقيدة:

1 - آكام اللؤلؤ والمرجان فى أخبار الجان للشبلى الحنفى، المتوفى (769هـ) طبعة محمد على صبيح (1376هـ).

2 - الإسلام فى عصر العلم للغمراوى - الطبعة الأولى (1393هـ - 1973م) مطبعة السعادة.

3 - الإسلام يتحدى - لوحيد الدين خان - الطبعة الأولى (1390هـ - 1970م).

4 - إلى التى سألت: أين اللّه ؟ للأستاذ أحمد بهجت.

5 - الإيمان - لابن تيمية، المتوفى (728هـ) المكتب الإسلامى بدمشق (1381هـ، 1961م).

6 - التوسل، أنواعه، وأحكامه - للألبانى - الطبعة الأولى.

7 - تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الوهاب، المتوفى (1233هـ) الطبعة الثانية (1390هـ) طبعة المكتب الإسلامى.

8 - شرح الطحاوية بتحقيق الألبانى - الطبعة الرابعة (1391هـ) المكتب الإسلامى ببيروت.

9 - الشرك ومظاهره - للعميلى الجزائرى - الطبعة الثانية (1966م).

10 - العقيدة الإسلامية وأسسها - عبد الرحمن حسن حبنكة.

11 - قصة الإيمان - للجسر - الطبعة الثالثة (1389هـ - 1969م) المكتب الإسلامي.

12 - الكواشف الجلية عن معاني الواسطية - لعبد العزيز السلمان - الطبعة الرابعة بمؤسسة مكة للطباعة والنشر دار الإعلام.

13 - لوامح الأنوار البهية - للسفاريني - المتوفى (1188) الطبعة الأولى.

د - كتب السيرة:

1 - البداية والنهاية - لابن كثير، المتوفى (774هـ) الطبعة الأولى (1966م) دار النصر للطباعة.

2 - سيرة ابن هشام - لابن هشام، المتوفى (218هـ) بتعليق الهراس، نشر مكتبة الجمهورية لصاحبها عبد الفتاح مراد.

3 - محمد المثل الكامل - لمحمد أحمد جاد المولى - الطبعة الرابعة (1371هـ، 1951م) مطبعة الاستقامة.

4 - مختصر سيرة الرسول. لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المتوفى (1244هـ) مطابع الحكومة بمكة.

هـ - كتب اللغة:

1 - دائرة معارف القرن العشرين - لفريد وجدى، المتوفى (1373هـ) - الطبعة الثالثة: (1971م) دار المعرفة للطباعة والنشر.

2 - القاموس المحيط - للفيروز أبادى، المتوفى (817هـ) المطبعة الحسينية المصرية.

3 - لسان العرب لابن منظور - دار بيروت للطباعة والنشر.

4 - مختار الصحاح - للرازى، المتوفى (666هـ) الطبعة الأولى (1976م).

5 - منجد الطلاب - لمعلوف - الطبعة السابعة عشرة.

* * *